

HABASHI

AL-SHARQ AL-ARABI BAYNA SHAQQAY AL-
RAHA

2269
3954
3885

Habashi

al-Sharq al-'Arabī bayna
shaqqay al-rahā

DATE	ISSUED TO
DEC 17 '68	BINDERY

[illegible]

Princeton University Library



32101 072535527

حسن حبشي



الشرق العربي بين شقي الرحى
حملة القديس لويس على مصر والشام

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

١١٧١

Halashi, Hasan

حسن حبشي

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد
دبلوم في التربية وعلم النفس
ماجستير تاريخ بمرتبة الشرف

al-Sharq al-Arabi

الشرق العربي بين شقي الرحى
حملة القديس لويس على مصر والشام

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

رقم ٢٢٦٩

2269

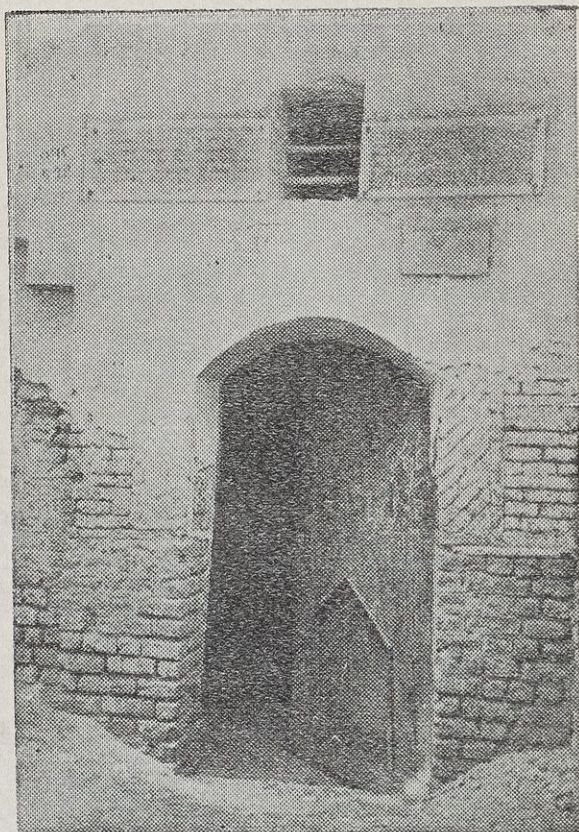
3954

385

رقم ٢٢٦٩

رقم ٢٢٦٩

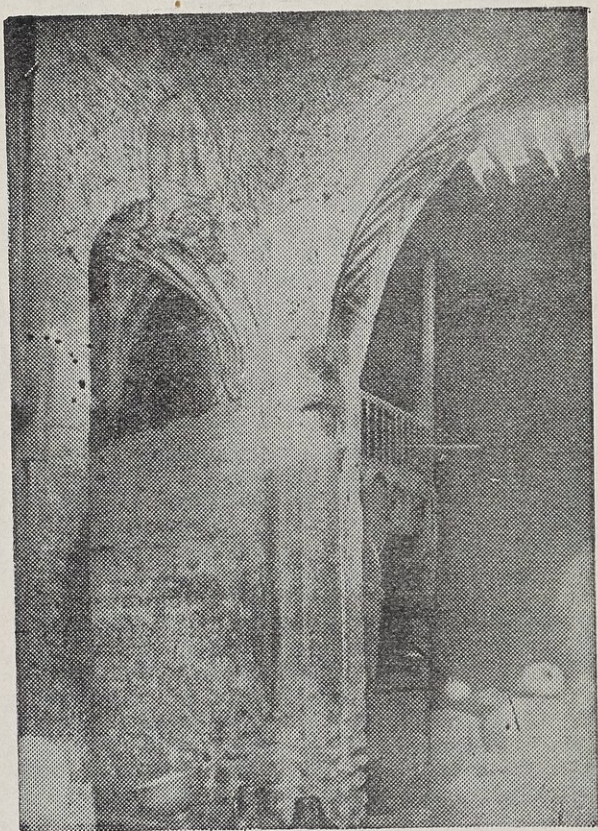
رقم ٢٢٦٩



واجهة دار ابن لقمان بالمنصورة حيث سجن الملك لويس التاسع
(من مجموعة إدارة حفظ الآثار العربية بالقاهرة)

١١-٢٥-٦٨

١٥٨٨



داخل الحجرة التي سجن فيها الملك لويس التاسع بالمنصورة
(ومن مجموعة لإدارة حفظ الآثار العربية بالقاهرة)

إلى جنود الفاروق العظيم
أبطال الفلوجة
تحية لموقفهم المجيد
وبسالتهم الرائعة

تصدير

المذكرات عزيز - وريال عطية

أستاذ العصور الوسطى بجامعة فاروق الأول
والأستاذ السابق بجامعة بون بألمانيا وليفربول ولندن بإنجلترا

عندما طلب إلى الأستاذ حسن حبشي تقديمه لقراء العربية بمناسبة صدور كتابه الجديد عن حملة القديس لويس على مصر والشام ترددت في إجابة هذه الرغبة الكريمة من لدنه ، لا لسبب سوى أنه قد أصبح في غير حاجة إلى تقديم مني أو من غيري إلى جمهور المثقفين في العالم العربي ، وهم يعرفونه مؤلفاً ومدرساً للتاريخ ، كما أنهم يعرفون مؤلفاته التاريخية السابقة لهذا السفر ، ومنها بحثه عن « الحرب الصليبية الأولى » ، وكتابته عن « نور الدين والصليبيون » ؛ ذلك إلى جانب ما كتب من بحوث ومقالات ، وما نظم من شعر بليغ ، بما هو منشور له في المجلات العربية في مختلف أقطار الشرق الأدنى والأوسط وفي الأمريكتين .

هذا - أيها القارئ الكريم - هو في الحقيقة باعث التردد في نفسي ، بيد أنني أقبلت في النهاية على كتابة هذه الكلمة ؛ ولكن للتقدير والتشجيع .

عرفت « حسن حبشى » منذ عام ١٩٣٧ عندما كان يحضر علىّ في تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول ، فما أن بلوته حتى لمست فيه الذكاء المفرط ، والاجتهاد الفائق ، وحماسة لا تنجو للدرس والتحصيل في مادة التاريخ عامة ، والتاريخ الوسيط. على وحه أخص ، وأحسب أنه لا يزال يذكر — كما لا أزال أذكر — أننى بشرته بما يحتنى منه في ميدان البحث التاريخى ، فما أن تخرج فى الجامعة وهو متوج بما أحرز من درجات علمية ليست بمستغربة منه إلا وبدأ حياته العملية على الفور فى حقل التعليم ، فأجاد فيه كل الإجادة ، على أن تقدمه فى هذا المضمار لم يصرفه ألبته عن الاشتغال بالبحث والتأليف .

ثم شاء القدر بعدئذ أن يُشَرِّق هو وأن أغرَّب أنا ، فهاصر فى بعد الشقة عن متابعة نشاطه فى إعجاب ، وبيننا آلاف الأميال ، ومن دوننا بحار وقارات . وكنت أبارك هذا النشاط الوافر بروح المشجع الواصل من أن هذه النبتة ستؤتى غراسها طيبة ، وكنت — ولا زلت — وافر الثقة من أنه يخطو فى الميدان الذى شاء أن يسير فيه خطوات ثابتة قوية ، تهدف دائما إلى الأمام ، غير مكترث بأى صعاب تعترضه أو عقبات تقف فى طريقه .

وإذا كان الأستاذ حبشى قد أخرج ما أخرج من بحوث نافعة وترجم ما ترجم من كتب قيمة وهو ما زال بعد فى مقتبل العمر

ونضارة الشباب فإنه لابد — على مر السنين — بالغ الغاية التي أرجوها منه وله ، ولأمثلة من الشباب المؤمن بأن رسالة الجيل الجديد — لمصر وللشرق العربي — إنما تتركز في العلم الصحيح والبحث الدقيق والصبر على الاطلاع ، وهي كلها مجال إظهار عبقرية الأمة ، وأما غير ذلك مما يغتر به السطحيون فزبد لا يلبث أن يذهب جفاء .



وهذا الكتاب الصغير الذي بين يدي القارئ ثمرة شبيهة جديدة من ثمار ذهن هذا المؤلف الخصب ، وموضوعه — بعد كل شيء — حلقة من حلقات ذاك الصراع العتيق بين الشرق والغرب الذي هو أقدم من ظهور المسيحية والإسلام ، وهو صراع حضاري وثقافي بين شقي العالم ، امتلاً به التاريخ الإنساني في مراحل المختلفة ويتحتم على المتصدي لخوض غمار البحث في العلاقات بين الشرق والغرب الإنكباب في جلد وأناة على درس الأصول العربية والأوربية على حد السواء وليس هذا بالهين ولا اليسير ، كل ذلك سعياً وراء الحقيقة المطلقة ، التي لا هي تاريخ الحروب الصليبية من وجهة النظر العربية أو الإسلامية فقط ، ولا هي تاريخ الحروب الصليبية من وجهة النظر الأوربية أو المسيحية فقط ، ولكنها نتيجة

الاسانيد المتضاربة ومقارنة بعضها ببعض واستنباط الحقيقة التاريخية من خطوطها المتشابهة المعقّدة .

ويبدو للقارىء أن المؤلف قد استطاع أن يتناول حملة الملك لويس التاسع على هذى الأصول العربية ككتب ابن واصل والعيني والمقریزی وأبی المحاسن وغيرها ، واسترشد إلى جانب هذا بما كتبه الفرنجة من أمثال جوانفيل وروتلان وتاريخ هرقل المعروف لدارسى العصور الوسطى الغربية ، فجاءت معالجته لهذا الموضوع الشائك سليمة من وجهة البحث التاريخي من حيث العرض العلمی والنتائج التي توصل إليها ، وقد صاغ ذلك كله في أسلوب فني جزل واضح العبارة ، لا يحس فيه المطالع إلتواء ولا يشعر معه بانقباض أو ملل بل يدفعه دفعا لمتابعة القراءة ، وذلك ما أصرّح به القارىء من أنني أقبلت على مطالعة هذا السفر الجذاب من مطالعه إلى خاتمته في جلسة واحدة .

* * *

وقد تكون هناك قلة من المتعمقين في الدراسات التاريخية تبدو لها نواح كان ينبغي أن تعالج بغير ما عولجت به هنا من حيث التوسع ، إلا أن ذلك لا يضير الكتاب بحدوده الصغيره وفي ظروف المؤلف الخاصة وهو في حل وترحال ما بين مصر والعراق ،

وما يحيط بذلك الوضع من ضيق في الوقت وعدم توفر أسانيد
مبعثرة في مكتبات غير هذين البلدين .

وإن الجهد الذي أمامنا في هذا الكتاب لجهد مشكور ، يدل
على عمق الباحث وكفاءته وقدرته على استيعاب الخطوط الرئيسية
في موضوع هذه الحملة ، كما يدل في الوقت ذاته على أنه يرتجى منه
الخير الكثير في ميدان البحث التاريخي ، وإذا كان هذا يومه في
التأليف فأكرم بغده .

لذلك أجد نفسي مغتبطاً كل الاغتباط أن أكتب هذا
التصدير لدراسة أتمنى أن تتبعها غيرها على نمطها ، كما أتمنى أن يكون
هذا البحث مثلاً طيباً يحتذ به شباب النهضة العلمية الحديثة في معالجة
تاريخ الشرق وأحياء تاريخنا القومي .

الاسكندرية

في ١٥ فبراير سنة ١٩٤٩

عزير سوربال عطية

مقدمة

كان الشرق الأدنى - ولا يزال - هدفا لمطامع خارجية ، سبيلها الفتح والضم أحيانا ، والتغلغل الاقتصادي أحيانا أخرى ، وقد تغتفر الأساليب الثقافية باعتبارها وسيلة من وسائل التقدم الفكري ومسيرة موكب الحضارة الإنسانية ، وقد تغتفر كذلك العلاقات الاقتصادية إذا قامت على أساس من التبادل ، وهكذا الحال أيضا إزاء البعث الدينية ، لا سيما إذ وجهت عنايتها نحو الثقافة .

ولقد كانت مصر في أدوار تاريخها المختلفة عرضة للاحتكاك بالغرب نتيجة موقعها في مفترق الطرق بينه وبين الشرق ، واختلفت صور هذا الاحتكاك ، فكان منه ما هو سياسى ، ومنه ما هو اجتماعى ، ومنه ما هو ثقافى ، ولم يحملها تعصب ماعلى الإعراض عن جديد ما لجدته ، أو الأخذ بقديم ما لقدمه ، ولكنها كانت بوثقة ينصهر فيها الجديد والقديم معاً ليخرجا في النهاية سيديكة مصرية خالصة ، ومعنى هذا أيضا أنها خرجت بأحسن ما يؤدي إليه هذا الاحتكاك من نتائج طيبة وصبغت بها بذاتيتها الخاصة . ومع تعاقب دول مختلفة - في أدوار التاريخ المصرى القديم والوسيط - على حكم البلاد ، إلا أن ذلك لم يضعف قط بحال من الأحوال الروح المصرية الصميمة ، ولم تفقد أهل البلاد طبيعتهم الخاصة ؛ بل الواقع غير المنكور أن

المصريين مصّروا كل ما مرّ بهم ، وليس يعيب بلداً بحال من الأحوال أن يكون قد مرّ بهذه الأدوار إلا أن تكون تلك المراحل قد أفنت شخصيته القومية ، الأمر الذي لم يحدث قط في مصر ، وما على المتشكك في تلك الحقيقة إلا أن يطالع تاريخ هذه البلاد السياسي مقرونا بتطورها الاجتماعي والثقافي ، لتنجلي له الحقيقة سافرة ، ولينزل كل شك في صدره .

وإذا كانت مصر قد تعرّضت للأخطار الخارجية ، فإنها كثيراً ما كانت تنهض بالحرب لادفاعاً عن كيائها بل بما يقتضيها إياه واجب الجوار لبعض دول تربطها بها روابط مختلفة ، وطالما قامت بدور المدافع عن رقعة الشرق الأدنى من التوغل الحربى الأجنبى ، وما يتبع ذلك التوغل من استغلال موارد البلاد الاقتصادية لصالح الفاتح ؛ وهذا الكتاب لمحة عابرة لحرب من حروب جمّة قامت في العصر الوسيط بقصد الاستيلاء على فلسطين والشام ، وأهم من ذلك كله — في نظر المغير — إزالة قوة مصر من الميدان ، يقينا من الغرب الأوروبى — وهو صادق في هذا اليقين — أن زوال سلطان مصر يؤسّس لتحقيق المطامع الأروبية في بقعة الشرق الأدنى ، التى نعرفها اليوم بالشرق العربى ، وعلى هذا الأساس يمكن إلى حد ما أن نفسر التجريدات الصليبية التى بدأت — باتفاق بين المؤرّخين — فى ختام القرن الحادى عشر للميلاد ، والتى لا زالت حتى الساعة

موجهة إلى هذه الربوع ، مرتدية مسوحاً مختلفة .

ولقد استطاعت مصر — باعتراف الباحثين المؤرخين — أن تصد هجمات الصليبيين ، سواء أكانت هذه الهجمات ضدها مباشرة أم ضد البلاد الأخرى التي تربطها بها رابطة اللغة والجوار ، واستطاعت تلك البلاد المجاورة أن تضمن سلامتها وعدم وقوعها فريسة للاستعمار الأوربي بفضل قوات الجيوش المصرية في مختلف أدوار التاريخ وفي شتى ميادين القتال ؛ ومصر تستطيع أن تفخر بهذا الجهاد الذي تقوم به غير مدفوعة إليه بكسب مادي ، أو توسع إقليمي ، أو سيطرة ما ، بل تبعثها عليه الرغبة الصادقة في أن تستقر أمور كل بلد في أيدي أهليه .

* * *

ولقد قدّر لمصر أن تقوم منذ سبعة قرون تماماً بدفع غارة أوربية صليبية ، حين قذفت أوربة بحوافلها تحت قيادة الملك الفرنسي لويس التاسع ، بقصد استلاب فلسطين ، وشاء القدر أن تصطدم هذه الحملة بالقوات المصرية ، فلقيت شر أنواع الهزيمة في المنصورة ، وهي في التاريخ الصليبي تعتبر « حطين » الثانية ، إذ وقت الشرق العربي من الوقوع في أيدي المخاطرين والمغامرين الأوربيين .

ولقد جدّت أحداث اقتضت أن يخرج هذا الكتاب الصغير مبكراً عن مواعده وسابقاً لغيره في موضوع الحروب الصليبية ،

ليطالعه القارىء العربى فيقف على صورة من صور الدفاع قامت بها
الجيوش المصرية منذ أحقاب ، ولقد كان من الممكن — لو تخلت
مصر يومذاك عن الدفاع أو هزمت فى الميدن — أن يحتل الأوربيون
بلاد الشرق الأدنى ، لاسيما وأن بغداد ما لبثت غير قليل من هذه
الأحداث أن سقطت أمام قوات المغول ، وسقطت معها الخلافة
العباسية ، وهنا يبدأ الدور الثانى فى كفاح المصريين ضد المغول ،
إذ استطاعوا هزيمتهم وصدّهم نهائيا .

* * *

هو بعد فإن كل ناحية من نواحى هذا الكتاب قائمة على ما ورد
فى المراجع الأصلية ما بين عربية وأوربية ، قديمة وحديثة ، ليس
لى فيها فضل إلا عرضها إن يكن ذلك فضلا .

مصطفى مصطفى

الوزيرية . بغداد
الإثنين ٢٤ يناير ١٩٤٩ م

شهدت القرون الوسطى حركات خطيرة قام بها الغرب تحت ستار الدين لاستعمار الشرق الأدنى ، وهذه الحركات هي المعروفة في التاريخ السياسي بالحروب الصليبية ، وعلى الرغم من كثرة الحملات التي شنتها ممالك أوروبا وجمهورياتها المختلفة إلا أنها لم تستطع تحقيق أهدافها من الوجهة السياسية ، أو على الأقل لم يُقدَّر لهذا الجانب السياسي البقاء طويلا ، إذ سرعان ما تغلبت عليه قوات الشرق الأدنى وأزالته .

على أنه لا يُنكر أن مصر وقفت من هذه الحروب موقفاً مجيداً ، لولاه لتغيَّر وجه التاريخ تغيراً كبيراً ، فقد استطاعت أن ترد هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، مما نتج عنه حماية بلاد الشرق العربي بأكملها — في العصر الوسيط — من خطر الاستعمار الأوربي ، إن جاز استعمال هذا اللفظ ، وعلى من يداخله الشك في تلك الحقيقة أن يتصور ما كان يؤول إليه حال منطقة الهلال الخصيب الممتدة من أرض العراق إلى فلسطين لو قدر لفيليب أغسطس أو ريتشارد قلب الأسد الانتصار على قوات صلاح الدين ، ولا مشاحة في أنه لو تهيأ النصر للغرب في وقعة حطين لذهبت قوة مصر ، ولضاع خط الدفاع

الأول عن البلاد العربية جمعا ، ولنتج عن ذلك عجز مصر ، فيما بعد عن صد قوات المغول — الذين «خلقهم الله من سخطه» كما يقول أحد السكتاب القدماء — بعد أن أزالوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م ، وقتكوا بالمستعصم ، وخرّبوا بغداد عاصمة الشرق السياسية والروحية يومذاك ؛ فقد أدت هزيمة التتار — أمام القوات المصرية في وقعة «عين جالوت» ، إلى إبقاء الدول العربية الإسلامية واستمرارها في الحياة ، واستعادتها قوتها فيما بعد لتحمل في العصر الحديث راية القوة ، ولتساهم بنصيب غير ضئيل في إقرار السلم والأمن العالميين .

ذلك نصيب مصر في الدفاع عن كتلة البلدان العربية الإسلامية في العصر الوسيط ، بما لم يخف على الغرب ، فرأى تسديد قوائمه لضرب هذا المعقل الأشب ، فكان من ذلك حملاته المتكررة على شمال الوادي .

وربما كان القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أحفل القرون بالحركات الخطيرة التي سطرت صفحات جديدة في تاريخ الشعوب في الشرق والغرب ، فقد تبلورت فيه قوة النرمندين ، وظهر أثر الصراع العنيف بين الإمبراطورية والبابوية ، وبدأت جرثومة التفكير الحر في النواحي المختلفة ، وفوق هذا كله وجهت نحو مصر على وجه الخصوص حملات قوية ، كان عدم انتصارها في تحقيق

أهدافها بيانا صريحا جليا لقوة شعبها ، وكان المقصود من ذلك سحب ما بيدها من السلطان حتى يسهل وقوع فلسطين في أيدي المخاطرين والمغامرين الأوربيين ، ثم بقية أقاليم الشرق العربي ، ولم يفك ذلك مؤرخي العصور الوسطى ، فنسمع أحدهم يقول في صدد حملة لويس على مصر « إن لويس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الأفرنج — وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية ، .

ولعل تلقيب الملك لويس « بالقدّيس » ما يدل دلالة واضحة على سمة هذه الحملة ونزعتها الحقيقية ، وأنها كانت تهدف إلى إزالة ما لمصر من قوة وسلطان لتتفرغ مطمئنة إلى القضاء على استقلال بقية العالم الإسلامي ، ولوقْدَر النجاح لهذه الحملة في تحقيق أهدافها ، ولو لم تقف الجنود المصرية وقفة كريمة سجلها لها التاريخ في سجل البطولة وأضافها إلى سوابق مجيدة لكانت مصر وبقية الشرق العربي اليوم في نطاق الأملاك الفرنسية ، وما يتبع ذلك من زوال الروح القومية أو تأخرها في الظهور آماداً طويلة ، وليكانت منطقة الهلال الخصيب — من العراق إلى جنوب وادي النيل — فرنسية الروح والمظهر ، نظراً إلى ما أثر عن الفرنسيين من الشدة والعنف في بسط سلطانهم السياسي على الأملاك المفتوحة الخاضعة لهم .

ولم يترك لويس التاسع وسيلة لتحقيق أمنيته في القضاء على مصر والشرق الإسلامي إلا واصطنعها ، فنراه — وهو المسيحي «التسقي» —

لا يرى غضاضة في مديده إلى المغول ، ومحاولته الاتفاق معهم ، لما يدركه فيهم من الرغبة العنيفة الملحة في إزالة القوى الإسلامية ، ليسهل عليهم بعدئذا الانطلاق في ربوع العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا ؛ فكان من جراء هذه النزعة في لويس التاسع أن اتخذ سياسة التقرب من التتار الذين كانوا يحكمون يومذاك رقعة غير ضئيلة ، تشمل شمال الصين وتركستان وفارس وجورجيا وقسما من جنوب روسيا ، وكان لويس يدرك ميول المغول — لا سيما ملكهم — إيلخان جيوك Guyuk إلى النساطرة^(١) ، واستوزاره جماعة ممن يعطفون على أتباع هذا المذهب .

ولم يقف لويس عند هذا الحد بل تعداه إلى محاولته الاتفاق مع جماعة الحشاشين في بلاد الشام الذين كانوا إلأعلى الإسلام والمسلمين وعلى كل مجاهد عربي يحاول توحيد القوى الإسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحا منهم منذ البداية في عهد الصليبيين الأوائل ، وفي محاولتهم القضاء على كل حركة إفاقة يحاول المجاهدون المسلمون القيام بها لدفع الفرنجة عن الشرق ، ولم تخف على لويس هذه النزعة الخطيرة من جانب الحشاشين وإسماعيلية الشام ، فمدّ لهم يده مصافحا وموادعا ، واتفق مع زعيمهم شيخ الجبل ، واتصلت السفارة بين الملك المسيحي وبين شيخ إسماعيلية جبل نصيرى من أعمال الشام بما يتفق وصالح

(١) Cf. Manus. de Rothelin, p. 569.

الطرفين اللذين أخذ كل منهما استغلال الآخر لمصلحته الذاتية ، كما نلاحظ أيضا أنه ما كاد يصل إلى عكا — عقب إطلاق سراحه من أسر الماليك — حتى اتصلت السفارة بينه وبين شيخ الجبل ركن الدين خورشاه^(١) ، وكان كبير الاسماعيلية هو الذى بدأ المراسلة ، إذ أنفذ من قبل أحد فدائييه . وعلى الرغم من أنه لم يكن شيخ البلد يرغب فى أن تكون هناك مودة بينه وبين لويس التاسع ، وعلى الرغم من أن كل ما كان يهدف إليه هو تهديده — من طريق خفى بقوته وقوة طائفته — إلا أن المودة سرعان ما توثقت بين كبيرى الجماعتين .

٣

تولى لويس التاسع ملك فرنسا يوم ٨ نوفمبر ١٢٢٦ م بعد أبيه لويس الثامن ، أما أمه فهى الملكة بلانش Blanche ابنة الفونس التاسع ملك قشتالة ، وكانت بلانش شديدة التقوى خالصة الإيمان قوية التمسك بمذهبها ، تجد الراحة والطمأنينة فيما تقرأه من الكتب الدينية وأعمال الرسل ، فكانت أميل للناحية الروحانية وإن كانت قد اشتدت فى أخريات أيامها ضد زوجة ابنها ، ومع أنها كانت مكروهة من الشعب نظراً لعدم خلوص عنصرها ، إلا أن هذه الناحية الدينية القوية ، وما انطبعت عليه من العمل لما فيه خدمة

(١) E. Browne: A Literary History of Persia, Vol. II, p. 456.

الكنيسة واللائذين بها كانوا من أكبر العوامل في تخفيف الكراهية
ضدها إلى حد بعيد ، كما أن انصرافها للدين قلّل إلى مدى كبير من
تدخلها في السياسة : ملكة أو وصية ، وجعلها تُلقي الجانب الأكبر
من اهتمامها إلى ولدها لويس : ولي عهد وملكاً (١) . وقد عنيت
الملكة بلانش بتنشئة ولدها نشأة قوية من الناحيتين العلمية والأخلاقية ،
فعهدت به إلى جماعة من خيرة علماء عصرها ، وأحاطته برعايتها وحدها
وحنوها ، على أن هذا الحنان ما كان ليطنخي بحال من الأحوال على
محاولتها تقويمه تقويماً مسيحياً خالصاً ، ذلك أنها كانت تدرك أن
ولدها هذا إنما هو الدين أولاً وقبل كل شيء ثم للدنيا ثانياً ، فإذا
تعارضت الناحيتان وتضاربت مصالحهما فلا شك أنها تؤثر في صميم
نفسها أن يعمل ابنها ما فيه صالح العقيدة حتى ولو كان هذا العمل
مؤدياً إلى ضياع مصالحه الدنيوية ، فكانت تقول إنه أهون على
نفسها أن تشاهد مصرعه بعيني رأسها من أن يرتكب خطيئة تغضب
الرب . وإذا كان ناشئ الفتیان ينشأ على ما عوده عليه من حوله ،
فلا مشاحة إذا شب الغلام وقد أشرب حب الدين إشراباً ملك عليه
نفسه وسيطر على جوانحه ، وانعكس أثر هذه التعاليم في حياته
غلاماً ويافعاً وشاباً وملكاً ، فتآلف الناس — والمؤرخون فيما بعد

(١) Ach. Luchaire, Le Royaume de France (Lav. & Ramb.),
p. 379 — 380.

على تسميته بالقديس ، تسميةً انفرد بها من بين الملوك وغيرهم ،
وراحت علماً عليه دون غيره ، حتى إن الذهن لينصرف إليه دون
سواه ولا يخطئه الفكر إن طرقت السمع كلمة « القديس لويس » .
والواقع أن دفاعه عن الدين كان دفاعاً صادراً عن نفس مؤمنة به
خالص الإيمان ، حتى إنه ما كان يعبأ بعرشه في سبيل رعاية الصالح
المسيحي العام ، فهو من طراز ليس له في الغرب من الأشباه كثيرون
أو قليلون في تلك العصور ، رغم اتسام حروب هذه القرون بالسمة
الدينية ، وما يذكر عنه أنه اغتتم فرصة حملته الصليبية على عكا وأدى
فريضة الحج إلى « الناصرة » ، ويصف أحد المؤرخين منظر دخوله
إليها بأنه ما كاد يشارف أرباضها ، وتطالعه قبائرها ، وتطل عليه ذرى
كنائسها حتى ترجل من على ظهر جواده وخر ساجداً ، واقتصر
طعامه يومه هذا على الخبز الجاف والماء القراح ، وإن هذا الموقف
ليذكرنا بموقف شبيه له منذ قرن ونصف قرن من الزمان ، يوم دخل
جودفروي دي بويون مدينة بيت المقدس على رأس البقية الباقية
من الحملة الصليبية الأولى ، وأبى أن يلبس تاجاً من الذهب « حيث
لبس المسيح الشوك »^(١) ، أضاف إلى هذا ما يذكره المؤرخون
من عدله وإحقاقه الحق ولو على نفسه^(٢) ، وترجمته التي كتبها جواثيل

(١) حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٨٩ .

(٢) Joinville's Chronicle, p. 151 — 152 .

حافلة بالصور الكريمة الطيبة الدالة على خلوص نفسه لله ، واهتمامه برعاية المصالح المسيحية ما وسعه الجهد ، وهذا هو الإيمان الذي جعله يقف من الجماعات المملوكية — حين وقوعه في أسرهم — موقفاً أكبروه فيه ، إذ لم تظر نفسه شعاعاً ، ولم يجزع حين هددوه بالقتل ، ولعل الناحية الدينية في لويس لا تظهر واضحة إلا إذا قورنت بما اجتاحت ذلك العصر من ظهور حركات فكرية معينة ، اعتبرت خطراً على الكنيسة وهرطقة يجب أن تحارب ، وبدعة يتحتم على المؤمنين الخالص نبذها ومحاربة أصحابها .

والواقع أن الكنيسة كانت تمر بدور من الضعف شديد ، فلم تعد لها تلك المكانة التي كانت لها في القرن الماضي لاسيما في أوائله ، وأخذت جماعات كثيرة تظهر في شتى نواحي أوربة ، وهي النواحي المستظلة بالرأية المسيحية ، وشرعت هذه الجماعات تعمل بما لم ترض عنه الكنيسة ورجالها ، مع ما قد يكون في عمل هذه الجماعات من روح لا تناهض المسيحية في صميمها ، بل إن الكنيسة تعرضت لسهام نقد فئته من رجالها الخالص الساعين لنهضتها ، وذلك أن رجال هذه الفئة هالهم ابتعاد « الكنيسة » عما هو مفروض فيها ، واحتجائها الأموال الكثيرة دون أن يكون ثم سبيل مشروع يبرر هذا الاحتجان ، وحسبنا أن نشير إلى أن من بين الغاضبين على الكنيسة غضباً للكنيسة ذاتها « برنارد دي كليرفو » ، الذي كان يتمنى — كما جاء

في رسالة له إلى البابا — أن يمتد به الأجل إلى اليوم الذي يرى فيه
« كنيسة الرب تعود سيرتها الأولى في أيامها الخالية ، حين كان يلقي
الرسل شباكم لتصيد الأرواح ، لا لاكتساب الفضة والذهب » ،
وكان ذلك قبل قرن من الزمان من ظهور الحركة الصليبية التي تزعمها
لويس التاسع ، واستمرت حركات « الهرطقة » تنتشر في أوربة
كالنار تسرى في الهشيم طوال ذلك القرن ، وأصبحت الكنيسة
أشبه بزورق في بحر لحي يغشاه موج من فوقه أمواج ، كلها حاول
ربانها صد التيارات من جهة غشيه تيار أقوى من جهة أخرى .

فتعرضت الكنيسة لمهاجمة « بطرس أبيلارد » ، ومن بعده لتلميذه
« أرنولد الذي هو من Brescia فقد دعا بوجوب اعتزال الكنيسة
ممارسة الأعمال الدنيوية واقتصارها على تأدية رسالتها الروحية ،
وأن تكتفي بما تجنيه من الأعشار ، وتتجلى خطورة « أرنولد » مما
وصفه به « سنت برنارد » من أنه « رجل أقواله كالشهد المشتار ،
أما تعاليمه فسمامة ، قد نبذته برشيا ، وتقززت منه رومة ، ونفته
فرنسا ، ولعنته ألمانيا ، وأبت إيطاليا قبوله » ، ومع أن أرنولد لقي
خاتمة محزنة على يد فردريك بربروسة إلا أنه بث في صدور تلاميذه
من بعده ناراً ظلمت مشبوبة الأوار على الدوام .

ومن أخطر الحركات الإلحادية التي شهدتها الغرب الكاثوليكي
حركة « الفالدنس » Waldens ، التي نشأت براعها الأولى ونضجت

وافتتحت للحياة فى مدينة ليون ، وتنسب الحركة إلى تاجر ثرى من
تجار تلك المدينة كان يحول ذات يوم فى السوق ، حين أنصت إلى
أحد المنشدين ينشد فى غناء شجى سيرة أحد القديسين ، فوقعت
السيرة من نفسه موقعا كريما أخذ بمعاقب قلبه ، ووجدت تربة خصيبة ،
فحاول تقليد هذا القديس ، فنزل عن كل ما يملك إلى زوجه وبناته
وإلى الفقراء ، وتجرد من كل زخرف الدنيا وترك بلهنيتهما دبر أذنه ،
وخرج فى مسوح الرهبان ، وتبعه جماعة ممن تأثروا بهذه الفكرة ،
وأطلق عليهم فى التاريخ لقب عرفوا به ذلك هو رجال ليون الفقراء ،
على أنهم وجدوا معارضة قوية من الكنيسة التى رفضت أن تأذن
لهم بالتبشير ، وكان مما نادوا به أن الدعوة تستجاب سواء أكانت
فى الكنيسة أم فى المزود .

من هذا كله يتبين لنا أن الكنيسة وجدت معارضة قوية منذ منتصف
القرن الثانى عشر ، لذلك ليس من العجيب أن يكون لويس التاسع
نسيج وحده فى العطف على المبادئ الكنسية ، وأن يعتبره رجال
الدين واحدا منهم ، وأن يببالغوا فى تمجيده ، إذ لم يكن من المنتظر
أن يقف ملك ما من الملوك إلى جانب الكنيسة هذا الموقف ، فكان
رجلا لا تأخذه هواة ولا رحمة إزاء الجماعات التى تحوم حولها
الشكوك فى مملكته ، ولا يمنع المرء من بطش الملك قوة الشخص
أو مكانته فى الدولة والمجتمع ، كما انصبت نقمته كذلك على اليهود ،

نفسى عليهم وذاقوا فى زمنه كثيرا من الويلات سواء فى النفس أو المال أو مصادرة أملاكهم^(١)

ومهما يكن الأمر فقد وجدت هذه الحركات الإلحادية وأشباهاها عطفًا غير ضئيل من الكثيرين من العلماء والمفكرين بطبيعة الحال وكذلك من الأمراء ذاتهم . أما لويس فكان ملكًا مسيحيًا مخلصًا لعقيدته كل الإخلاص ، لا يساوره أدنى شك فى أى تعليم من تعاليمها ، وخلاصة تفكيره واضحة فيما كتبه جوانفيل^(٢) عنه ، حيث يقول « قال لويس إنه يتحتم علينا أن نعتقد اعتقادًا قويًا بمبادئ الإيمان ، لا خوفًا من الموت ، أو رهبة من أى ضرر قد يلحق الجسم ، وكان يقول إن العقيدة المسيحية والإيمان المسيحي شيئان يجب أن نعتقد فيهما اعتقادًا جازما ، رغم أننا قد لا نكون متأكدين منهما إلا سماعًا ، وهو إيمان كإيمان العجائز يجد فيه كثير من الناس الراحة التى لا يجدها سواهم من المتشككين الذين يجهدون أنفسهم ولا يصلون إلى شىء ما تطمئن إليه نفوسهم ، والإيمان العميق الصادق خير عزاء للنفوس المجردة ، وأحوج الناس إليه من انغمروا فى المادة ، إذ تمر عليهم أوقات يدركون فيها أن الراحة النفسية

(1) Luchaire: Le Royaume de France, p. 408.

(2) Joinville: op. cit. p. 145 — 146.

أجدى من كل ترف مادي لا يحقق الاطمئنان الروحي . وبجمل القول في لويس إنه كما يذكر أحد الكتاب كان محققا لقول بولص الرسول في رسالته إلى تيموتاوس ^(١) « التقوى نافعة لكل شيء ، إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعقيدة ، صادقة هي الكلمة ، ومستحقة كل قبول ، لأننا بهذا نتعب ونعير ، لأننا قد ألقينا رجاءنا على الله الحي الذي هو مخلص جميع الناس ولا سيما المؤمنين ، وقد سيطرت هذه الفكرة سيطرة تامة على ذهن لويس التاسع ، وعلى ضوءها يمكن تفسير جميع أعماله في ناحية الإدارة أو الحكم أو الحرب .

كان لويس يتطلع منذ زمن بعيد لزيارة الأراضي المقدسة لتطمئن روحه بالبقعة التي شهدت المسيح وكانت مسرحاً لنضاله ضد اليهود ، والذين انحرفوا عن تعاليم موسى ، فكان ذلك الصراع العنيف بين الإيمان والإلحاد ، وبين المسيح واليهود وبعض الجماعات اليونانية ، كما كان لويس في الوقت ذاته دائم التطلع لتحرير مسيحيي بيت المقدس من كل سيطرة دينية غير نصرانية ، ويلاحظ أن ذلك القرن والقرن السابق له قد شهدا حركات صليبية خطيرة لم تمكن حركة لويس هذه خاتمها ، لكنه على كل حال طمع في استخلاص بيت المقدس وما حوله للمسيحيين دون غيرهم ، وإن فاته أن هناك طوائف مسيحية معينة لا يرضيها الرضاء التام أن يكون للغرب السيطرة الروحية على تلك البلاد ،

(١) تيموتاوس أولى ، ٤ : ٨ — ١٠ .

على أنه وجد من حوله — كأمه ورجال دولته — ما حال بينه في بداية الأمر وبين تحقيق هذه الأمنية خوفا عليه أو ماشابه ذلك ، لكن تشاء الظروف أن تلعب الصدفة العجيبة دوراً شاذاً لم يكن منتظراً ، تمد فيه يد المعونة له لإخراج فكرته إلى حيز التنفيذ ، وتحقق له أملاً ظل يرادو خياله أمداً طويلاً ، وإن جاءت هذه المعونة على صورة مكروهة أولاً ، ورب ضارة نافعة كما يقولون ، إذ مرض لويس مرضاً خيف عليه منه ، وأرجف الناس بموته حين انقطعت أخباره عن أهل مملكته الذين لم يملكوا أنفسهم من البكاء والعويل عليه والتأسف لموته المكذوب ، ذلك أن لويس لم يكن ملكاً فحسب في عيني شعبه بل كان أباً وقديساً يرعاه في مملاته ^(١) فلا جرم إن كان الشجي عليه طويلاً ، والحزن لدعوى موته شاملاً عظيماً :

والناس صنفان : موتى في حياتهم مو وأخرون يبطن الأرض أحياء ويقص مؤرخه جوفانفيل ^(٢) رواية هذا الحادث على الصورة التالية ، وهي أنه د أصيب بمرض خطير وهو في باريس أدناه من نهايته ، حتى ليقال إن إحدى السيدات اللاتي كن يعنين به أرادت أن تلتقي الشياب على وجهه قائلة إنه قد مات ، غير أن هناك سيدة أخرى كانت واقفة إلى الجانب الآخر من فراشه أبت ذلك عليها قائلة إن الروح لا تزال في جسمه . . وبينما هو ينصت إلى هذه المحاورة بين

(١) Luchaire: op. cit., p. 408.

(٢) Joinville : op. cit, p. 162 — 163.

هاتين السيدتين إذ سرعان ما أسبغ الرب عليه الصحة ، لأنه كان قبل ذلك مباشرة أبكم لا يستطيع نطقا ، فلما أسعفه الكلام سألهم أن يجلبوا له الصليب ، ، ومن هنا داخله الاعتقاد بأن العناية الإلهية قد رعته ومننت عليه بالشفاء ليقوم بدور كبير ادخرته له ، وطبيعي لمثل هذا الرجل أن يذهب به التفكير يومذاك إلى محاولة نجدة الأراضى المقدسة فى الشرق وتيسير السبيل أمام حجاج القبر المقدس من الجماعات المسيحية المختلفة فى كافة أنحاء العالم ، بل وأن يعمل على نشر العقيدة المسيحية بين من لا يؤمنون بها ، وحينذاك أجمع العزم على حمل الصليب والخروج للشرق من « أجل الرب واستخلاص بيت المقدس من أيدي المالك حكام مصر ، ، وحذا حذوه كثير من الأمراء والأشراف ، وبادر بالانضمام إلى الحملة إخوته الثلاثة روبرت كونت دارتوا d'Artois ، وألفونس كونت بواتييه ، وشارل كونت أنجو Anjou الذى صار فيما بعد ملك صقلية ، وكذلك هيج كونت برجنديا ووليم كونت فلاندر ، وكنت ساربروك وكثيرون غيرهم ، وكان لبعضهم دور مشهور فى حرب دمياط والمنصورة لا سيما كونت أنجو ، كما لاقى أحد أخوته مصرعه فى هذه الحملة ، والمنايا رصد للفتى حيث سلك ، فقد قدر لهذا الأخ أن يخرج من فرنسا وهو يتفجر حماسة وشبابا ليلقى حتفه فى مصر وفى أحد أزقة المنصورة ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

سرت الحماسة بين الجميع، وهبت فرنسا بمقاطعاتها المختلفة وطبقاتها المتعددة للسير في ركاب لويس التاسع والانخراط تحت لوائه، وإن تأخر المسير أربع سنوات للاستعداد، وبذلك توفر لعاهل فرنسا ما لم يتوفر للملك غيره من قبل، لا سيما وأن حملة ١٢٤٨ إنما هي حملة لم يدع إليها في البداية أحد من البابوات، بل دعى إليها ملك استطاع بفعاله الكريمة النابهة أن يجمع حوله القلوب، وما أشد إخلاص الرعية في كل زمان ومكان واستجابتها للملكها حين ترى عطف هذا الملك وحب الخالص لها، وهكذا يستطيع الملوك أن يأتوا بالمعجزات حين يعطفون على شعوبهم ويشاركونهم أفراحهم وأتراحهم، فإن دعوهم للحرب هبوا مهطعين، يبذلون النفس وهي أقصى غاية الجود والبذل.

على أن نهوض لويس التاسع كان له ما يبرره يومذاك، ذلك أن القدس كانت قد ضاعت من أيدي الصليبيين منذ أمد قصير (١٢٤٤ م)، كما أصيبت غزة بضربة على يد القوات المصرية، وكانت هزيمة الفرنجة عندها واستيلاء نواب الملك الصالح نجم الدين عليها وعلى السواحل الشامية باعثة الفرع في قلب الملك لويس وغيره^(١)، مما حمل روبرت — بطرك بيت المقدس — على أن ينفذ

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور مصطفى زيادة) ،

إلى أمراء الغرب سفارة برياسة أسقف بيروت تستحثهم على النهوض بحملة صليبية إلى الشرق . على أن الغرب النصراني لم يكن في استطاعته استجابة هذه الدعوة نظرا للاضطرابات السائدة به إبان تلك الحقبة ، كما أن موقف فردريك الثاني من الكنيسة أو موقف الكنيسة من فردريك الثاني حال دون تنفيذ هذه الفكرة التي نهضت فرنسا وحدها بأعبائها ، وقد كان الخلف على أشده بين البابا أنوسنت الرابع Innocent IV والإمبراطور فردريك الثاني ، وهو نزاع لم تخف شدته على الشرقيين بله الغربيين ، فيحدثنا العيني ^(١) حديثا مستفيضاً عن ذلك النضال فيقول : « إن البابا غضب على الأنبرور وعامل خواصه الملائمين له على قتله وكانوا ثلاثة ، وقال : قد خرج الأنبرور عن دين النصرانية ومال إلى المسلمين فاقتلوه ، وخذوا بلاده لكم ، وأقطع كل واحد مملكة ، فأعطى واحدا صقلية ، والآخر تصقانة ، والآخر بولية ، وهذه ممالك الأنبرور ، وكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الأنبرور فعمد إلى مملوك له فجعله في مكانه على التخت ، وأظهر أنه قد شرب دواء ، وأرسل إلى الثلاثة فجاءوا والمملوك نائم على التخت فظنوه الأنبرور ، وقد اختفى الأنبرور في مجلس ومعه مائة فارس ، فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه فخرج عليهم الأنبرور فذبحهم بيده وسلبهم وحشا جلودهم تبنا وعلقتهم على باب القصر ، وبلغ الخبر البابا

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ١٩٩ .

فبعث إلى قتاله جيشا والخلف واقع بينهم ، وهذا الأنبرور هو الذى أعطاه الملك الكامل القدس ، ، وإذا كان القرن الثالث عشر ذا أثر بارز فى التاريخ العام ، فإن من أبرز معالمه التى تميزه عن غيره من القرون السابقة له أو اللاحقة به أنه القرن الذى تبلور فيه النضال بين الإمبراطورية والبابوية . وطرفا هذا النزاع هما البابا إنوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى .

والواقع أن فردريك الثانى كان أمة وحده من حيث تنوع الثقافة التى تملك ناصيتها ، واللغات التى ألمَّ بها ، والفنون الحربية الجديدة التى ابتدعها ومارسها ، وكان نسيج وحده فى تفكيره الحر مما أغضب بطبيعة الحال رجال الدين عامة لا سيما البابا ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان قريبا إلى قلوب رعيته خصوصا أهل صقلية الذين رأوا فى حكومته نوعا من المثالية معدوما فى تلك القرون الوسيطة ، والواقع أننا نظلمه إذا قلنا إنه أراد التحرر من سلطان الكنيسة ، ذلك لأننا نراه يؤيدها تمام التأييد فى القضاء على حركات الهرطقة والإلحاد ، على أنه كان يرى ألا تتجاوز الكنيسة هذا المدى فتدخل فى الشؤون السياسية وتصريف أمور الدولة ، وفصل الدين عن الدولة فى الغرب أمر يسير ، لكن الذى ليس باليسير هو تدخل كل منهما فى شؤون الآخر مما يترتب عليه اختلال سير دولاب الأعمال . ولقد بدأ فردريك صراعه مع الكنيسة زمن البابا باجريجورى التاسع

الذى جاهر الإمبراطور بالعداء ، وأى أمر أدعى للعداء أكثر من أن يصدر ضده قرار الحرمان سنة ١٢٢٧ لعدم اشتراكه فى الحرب الصليبية يومذاك ، على أن فردريك الثانى حاول مداراة البابا بعقد معاهدة معه تعرف بمعاهدة « سان جرمانو » سنة ١٢٣٠ ، تعهد فيها برد أملاك الكنيسة التى استولت عليها الحكومة إلى الكنيسة صاحبتها الأصلية ، على أن تلك المواقعة بين صاحبي السلطان الرومى والزمنى ما لبثت أن فُصمت عراها حين حارب فردريك أهل لمبارديا عام ١٢٣٦م رغم تدخل البابا لفض النزاع ، ثم عاد النزاع بين البابا والإمبراطور من جديد بعد ذلك بستين اثنتين فقط ، والسبب الحقيقى هو استيلاء فردريك على « سردينيا » وتوحيجه ابنه Enzo ملكا عليها رغم تبعيتها للبابا . على أن جريجورى التاسع ما لبث أن مات خلفه البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٤٣ ، لكن النزاع شجب بين الاثنين ففر إنوسنت من رومة إلى جنوة ، خالعا على ذلك الفرار صفة الهروب من بطش فردريك ، وسرعان ما عقد البابا مجمعا عرف بجمع ليون ١٢٤٥ قرر فيه تكفير الإمبراطور بحجة مصادقته لسلطان مصر الكامل والصالح نجم الدين أيوب ، وبادر فأصدر قرار الحرمان ضده ^(١) .

فى مثل هذه الظروف كان نهوض لويس التاسع بالدعوة للحرب التى اتخذت لها رقما معيننا حاملا البابا إنوسنت الرابع على المساهمة

(١) Cambridge Medieval His. Vol. V, P. 157 seq. العينى : نفس

في الدعوة لها هو الآخر ، ولا شك أنه كان مدفوعاً في ذلك بعاطفته الدينية ومركزه الديني ، وكان ينعت لويس « بأعز أولادى » ، والواقع أن جميع الظروف كانت تحمل البابا على تعضيد لويس في حركته ، وشتان بين هذا الملك التقي وبين معاصره الإمبراطور فردريك الثانى الذى أصدر البابا ضده قرار الحرمان ثم قال « لقد أديت واجبي ، وليفعل الله ما يريد » ، وهى جملة تدل على أنه كان يدرك أن الإمبراطور قد لا يعبأ بهذه الخطوة الجريئة ذات الأثر المعروف عند المهتمين بدراسة تاريخ العصور الوسطى . على أنه لا يستبعد أن يكون البابا إنوسنت الرابع قد أيد لويس التاسع خوفاً على نفوذه من أن يغطى عليه نفوذ رجل دنيوى كلويس ، رغم تألف القوم على نعمته بالقدّيس ، واعتباره « ابن البابا فى الرب » ، وتظهر مكانة لويس عند البابا حين قبل الأخير ما عرضه عليه الملك من أن يجب خطايا جميع الذين ارتكبوا المآثم من قبل ثم انخرطوا تحت لوائه فى ذهابه إلى الشرق (١) .

لم يكن فى استطاعة البابا — رضى أم أبى — إلا أن يبارك هذه الحركة ، وإلا أن يكون ثناؤه عظيماً على قائدها ومحركها وباعث القوم على امتشاق الحسام فيها ، وأكبر فى لويس همة حملته على العزم الأكيد على الخروج إلى الشرق ومغادرة مملكته وإنابة الملكة الوالدة

(١) Migne: Nouvelle Ency. Théol., arte, Croisades.

مكانه تدبّر شئونها بمعاونة كونت بواتو الذى لحق به بعد سنة من مغادرة الصليبيين لفرنسا .

٤

عقد لويس فى مدينة باريس مجمعا حضره كبار رجال مملكته وباروناتها وأشرافها ونبلاؤها ورجال الدين فيها ، كما حضره المندوب البابوى Odon de Ghatéauroux ، وفى هذا المؤتمر تناسى الجميع ما بين بعضهم والبعض الآخر من الحزازات الشخصية ، واتجهت أهواؤهم وعواطفهم نحو السعى للهدف الذى يرمى إليه ملكهم ، ومع أن الملك القديس استطاع تقريب وجهات النظر المختلفة إلا أنه عجز عن أن يزيل ما فى نفس البابا على فردريك الثانى . ومهما يكن الأمر فقد أقسم المقيمون من كبار رجال المملكة والمسافرون بصحبة الملك أغلظ الإيمان والمواثيق بمراعاة حقوقه ، وعدم التفكير فى الوثوب على عرشه أثناء تخيبه عن فرنسا ، وما كانت به حاجة إلى مثل هذا اليمين لاسيما وهو يدرك مقدار تعلق شعبه به ، كذلك وقف البابا أيضا إلى جانب لويس مكبرا الهمة التى حملته على النهوض بالحملة الصليبية السابعة التى جعلت وجهتها مصر ، علما منها بأنها إذا أزالها من الميدان لم تعد تخشى وقوفا جديا ما فى سبيلها لاحتلال الشرق العربى .

على أن السياسة الأوربية لم تكن تنظر إلى مشروع لويس على

مصر بعين الرضا ، لوجود ارتباطات وه مصالح معينة لبعض دول أوربة حملتها على اعتبار الحملة خطرا على مصالحها الذاتية في الشرق ، وطبيعى أن تكون العوامل التى تدعو الدول الأوربية لسلوك هذا الاتجاه عوامل سياسية وتجارية ، وإذا كانت البابوية — كما رأينا — قد حبذت خطة لويس فى مهاجمة مصر فإنها كانت تخاف فى الوقت ذاته من ازدياد نفوذ الملك ، مما قد ترى فيه الكنيسة تهديدا لسلطانها ، وليس من المستبعد أن يتخذ صورة عملية فيما بعد إذا تأزمت الأمور وتعقدت المشكلات بين القوتين الروحية والزمنية .

والواقع أن أوربة كانت تجتاز دورا عصيبا ، فى ألمانيا حرب أهلية بين مختلف الأمراء الذين تنازعهم الأهواء المتباينة ، لا سيما بعد ذلك الموقف الذى وقفه كل من الإمبراطور فردريك الثانى والبابا إنوسنت الرابع من الآخر ، ولم تكن الحال الداخلية فى إيطاليا أحسن مما هى عليه فى ألمانيا .

أما أهم القوات الزمنية التى احتكت سياسيا بلويس التاسع بشأن حملته الصليبية على مصر فقوتان هما : الإمبراطورية الألمانية وجمهورية البندقية ، ولكل منهما مصالح خاصة تملى عليها أن تقف موقفا معينا من إنهاض الحملة ، بل إن هذه المصالح ذاتها كانت تحملها على عرقلة الفرنسيين فى وصولهم إلى مصر ، ولم تكن إحداهما ترضى بانتصار الفرنجة على المصريين .

أما سياسة الإمبراطور الألماني فكانت ذات شقين يخالف كل منهما الآخر تمام المخالفة ، أحدهما يقتضيه معاونة فرنسا ومساعدتها بالمال والجند باعتباره حامى المسيحية فى الغرب ، وليس أدل على هذه الصفة الدالة على رعايته للصالح الكنسى فى أوربة واعتباره كبير رجال النصرانية ممّا جاء فى بعض المصادر العربية (١) من أنه « . . . قيصر المعظم . . . حافظ بيت المقدس ، معز إمام رومية ، مالك ملوك النصرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قائد الجيوش الصليبية » لذلك كان لزاما عليه — وهذه ألقابه والحملة حملة صليبية — أن يبذل العون للويس التاسع ، وهذا الشق من سياسته الخارجية تمليه عليه أوضاعه الخاصة فى القارة الأوروبية — موطن الحضارة المسيحية — وتمليه عليه مكانته فى نظر سكانها النصارى ، أو كما يجب أن تكون نظرة المسيحيين إليه فى أوربة ، هذا مع أن كثيرا من المسيحيين كانوا يعدونه أميل للإسلام منه إلى النصرانية وأنه كان يؤثر القرآن على الإنجيل (٢) .

على أن الإمبراطور كان فى الوقت ذاته يخفى فى قرارة نفسه الشق الآخر من سياسته التى لا يستطيع الجهر بها وتنفيذها صراحة وعلانية ، وهى سياسة ترمى إلى عرقلة الحملة الفرنسية الصليبية ، فلا عجب إذا تراءت أخبارها إلى الملك الصالح يوما بعد يوم ، وكان تلاميها من ناحية

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، ص ١٩٩ .

الإمبراطور ذاته ، إذ كان مصافياً له كما كان مصافياً للملك الكامل من قبله ، وكانت الأخبار تتواتر للسلطان من جهة الإمبراطور وملك بلاد الأندلس والبولية ،^(١) كما يقرر أحد المؤرخين المسلمين كحقيقة مسلم بها وأمر مقطوع به . ولعل مما حمل الإمبراطور على تمنى الفشل للحملة الصليبية رفض البابا العفو عنه رغم تكرار لويس التماس الرجاء منه ، وكذلك ما أراد البابا أن يفعله معه حيث اتفق مع جماعة من المخاطرين على الفتك به ، ولم ينقذه من الموت المحقق سوى تراخي الأخبار إليه سرا ، ونجاحه في إفشال تلك المحاولة وموقفه العدائي منه في كثير من الحالات .

أما البندقية فكانت تتمتع بالصدارة بين الجمهوريات الإيطالية من الناحية التجارية ، مما اقتضاها أن تكون ذات بحرية قوية في حوض البحر الأبيض المتوسط . فكان لابد للويس التاسع في إغاراته على مصر من الاستعانة بهذه البحرية ، ليتأكد من نجاح حملته ، وليضمن تموين قواته إذا هي أرسست على السواحل المصرية . وقد استعد لويس — قبل نهوض الحملة — بتوفير الذخيرة والمثونة لها ، فنراه يرسل قبل قيامها بسنة إلى قبرص جماعة من الرجال لشراء ما يحتاجه الجيش من الطعام أثناء مروره بالجزيرة . ولذلك يجد الجيش — حينما يعرج عليها في سبتمبر ١٢٤٨م — شتى أنواع المثونة متوفرة

(٢) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠١ .

بها، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين^(١) أن الملك أرسل قُدَّامه جماعة بلغت جزيرة قبرص لجمع اللحوم والمواد المعيشية . فكانت ذخيرة أعانتته على قضاء فترة بلغت تسعة أشهر . وانتهت في مايو من العام التالي^(٢) .

لم يتوان الملك القديس عن جس نبض البندقية بإنفاده سفارة من لدنه ، فأبدى «الدوج» استعدادا لمساعدة الحملة ، على أن الشروط التي قدمتها البندقية كفييلة بأن تظهر مقدار استجابتها لرغبة فرنسا ، وهي تدل دلالة صريحة قاطعة ليكل شك على أن «الدوج» كان قد بالغ في اشتراطاته ليكون الرفض من جانب فرنسا وليضمن بقاء علاقاته الودية مع سلاطين مصر ، مما يترتب عليه مساعدة التجار البنادقة وتيسير الأمور عليهم في مصر أولا ، وفي بلاد الشرق الأدنى ثانيا ، وفي منطقة شرقي حوض البحر المتوسط ثالثا . أما هذه الشروط التي أرادت البندقية إملاءها على فرنسا فتتلخص في إعفاء التجارة في الشرق من جميع الضرائب والمسكوس والالتزامات ، وكذلك الحال إزاء أحياء البنادقة وكنائسهم وحماماتهم وفنادقهم ، وأن يعم هناك استعمال المقاييس والأوزان والمكاييل البندقية^(٣) ، «غير أنه يظهر أن البنادقة كانوا يؤثرون ما بيدهم على ما قد يحصلون عليه من

(1) *Etoire d'Eracles*, p. 436.

(2) *Joinville's Memoirs*, p. 168.

(3) *Heyd: Hist. du Commerce du Levant*, t. I, p. 409.

هذا العهد^(١) ، على أننا لا نعرف الدواعي الحقيقية التي حملت سفراء فرنسا على قطع المفاوضات ، ولا يوجد بين الوثائق ما يميّط اللثام عن حقيقة هذه المسألة ، لذلك لا نعجب إذا رأينا «هيد» — وهو من هو في بحثه لهذه الناحية — يذهب للقول بأنه ربما كانت هناك شروط أخرى^(٢) ؛ وطبعي أنه لا يعرف هو الآخر ما هي تلك الشروط التي أدت إلى فشل هذه المفاوضات ، مع العلم بأنه ربما كان في قدرة الصليبيين أن تكون استفادتهم الشخصية أكبر من استفادة البنادقة ، فيما لو تم عقد هذه المعاهدة المرجوة وذلك الاتفاق المنشود بين الفريقين . والواقع أن العلاقات كانت ودية بين جمهورية البندقية وبين مصر ، وأدركت الأولى مقدار خسارتها المادية إن هي انسأقت مع التيار الصليبي ووقفت في صف لويس التاسع واستجابت لدعوته . وأدركت البندقية أيضا أن هذه العهود الأوربية — من جانب فرنسا أو غيرها — قد يكون من الصعب الوفاء بها في عصر امتاز بالروح الإقطاعية ، وبتطلع الأمراء المختلفين لتكوين إمارات لهم في أى منطقة من المناطق .

على أن الملك لويس استطاع عقد اتفاقية بينه وبين مرسيليا ، كما استفاد من اتفاقية أخرى له مع جنوة ، حيث أمده بعشرة آلاف رجل .

(1) Heyd: op. cit. loc.-cit.

(2) Ibid.

خرجت الحملة في عدد ضخم من المراكب والشوانى والبطس الحربية ، وكان قوام الجند من الفرنسيين الذين أخذوا ينضمون إلى مليكهم رغم أن بعضهم كان خارج حدود فرنسا ، كما انضم إلى الحملة فريق — وإن يكن صغيراً — من الإنجليز ، كذلك سافرت مع الملك لويس زوجته التي ضربت مثلاً في الصبر والثبات بعد أسره في المنصورة فيما بعد^(١) ، وقد أرسى الملك في ليماسول جنوب قبرص في النصف الثاني من سبتمبر ١٢٤٨ م ، وتلقاه هنرى ملك الجزيرة بالترحاب وشاركه شعبه ذلك الترحاب بالملك الفرنسي ، وكان لقاء طيباً دل على مكانة ملك فرنسا في نفوس الشعوب المسيحية المختلفة ، حتى ولو لم تكن فرنسية ، وكان صيته قد بلغ الجميع فهبوا يستقبلون طلعيته ، فكان ندى السكف ملبسوط اليد :

كف تخف مع الرياح سباحة ومهابةً تزن الجبال وترجع
قد جاءت الغرر الغرائب طلعا كالشهب تثقب في الدجى وتلوح
اطمأنت الحملة الفرنسية للإقامة في قبرص ، وقضت فترة الشتاء والربيع بها ، حتى إذا آذنت بواكير الصيف بالقدوم تحركت هي الأخرى ميممة شطر مصر ، وهنأيتجلى لنا خطأ لويس ، ذلك أنه كان ينبغي عليه أن يهاجم بيت المقدس لا مصر ، ولكن يظهر لنا

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ، ص

من تاريخه أنه لم تكن له سياسة مرسومة واضحة الخطوط والمعالم، بل الذى يتجلى لمطالع مسيرته هو أنه كان يسير وفق ما تمليه عليه عاطفته أو ظروفه، دون مراعاة للخسائر التى قد يتكبدها من سلوكه المفاجيء لهذا الطريق .

على أن المدة الطويلة التى قضاها فى جزيرة قبرص هيات للحملة فرصة من الراحة والاستجمام، وأمدتها بالوفير من المونة، مما شدد من عزائم رجالها وأتاح لهم نهزة طيبة اقترصوها فى الاتصال بجاعات شرقية مختلفة، كما توافد الكثيرون من الفرنسيين من خارج فرنسا إلى الجزيرة، وانضم إلى الملك أمراؤه وأتباعه الذين سبقهم فى السفر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انضاف إلى اليزك^(١) الصليبي كثير من المخاطرين والمغامرين الفرنسيين . والواقع أن انخراط أولئك المغامرين يحمل جرثومة الاستعمار الفرنسى فى الشرق وفتح نواحيه بحد السيف، وأن فكرة هؤلاء المتطوعين الجدد لم تكن الجهاد، بل لحل بعض الأمور اطمعوا أن تنهيا لهم الفرصة لتكوين مستعمرات فى مصر وإحالتها إلى إقطاعيات وإمارات، كما فعل أسلافهم فى بلاد الشام وشمالى العراق منذ قرن ونصف قرن من الزمان قبل ذلك التاريخ، وكان عدد هؤلاء الجدد كبيرا بدرجة لم يكن لويس يحلم بها، وطمعوا أن يتيسر لهم الفتح — فى هذا العدد الجهم الوافر —

(١) اليزك بتعبير ذلك العصر، هو الجيش .

لاسيا والحملة على مصر تقصدها من الشمال ، ولم يكن يخفى على
سلاطين مصر وأمرائها — في العصور الوسطى — أهمية القوة
البحرية المصرية في دفع أية غارة عليها تأتيها من وراء البحار ، ذلك
أن مصر لا يمكن أن تأمن على نفسها ولا تستطيع الاطمئنان من
هذه الناحية — حيث تمتد شواطئها مسافة أميال طويلة على البحر
الابيض المتوسط — إلا إذا وثقت من وجود قوة بحرية ضخمة
تستطيع حراسة ذلك الساحل ، ولم تغب تلك المسألة عن بال لويس
التاسع ، فرأى أن يتجنب مزلق الخطر التي تردى فيها من قبل الملك
أمورى الأول أثناء صراعه مع نور الدين حول مصر^(١) . واستفاد
من أخطاء الصليبيين الماضية استفادة جزئية ، وذلك بأنه لم يفعل كما
فعل أسلاف له من قبل ، فاتجه مباشرة إلى الشاطئ الشالى ، وجعل
وجهته مدينة دمياط .

كان لويس يتحرق شوقا لمغادرة قبرص ومهاجمة مصر ، ولو
ترك هو وشأنه لما أطلال المكث بالجزيرة لولا إرغام الأشراف
والأمراء وإلحاحهم عليه ، وفي هذه الاثناء وفدت عليه سفارة من
التتار تحمل إليه استعداد الإيلخانات للمساهمة مع الفرنسيين في
تخليص بيت المقدس وفلسطين بأجمعها من أيدي المصريين ، والواقع
أن التتار أخذوا منذ وقت غير قريب في رسم الخطط الأولية لتكوين
إمبراطورية قوية لهم تقوم حيث يقوم العالم المتحضر من غربي آسيا ،

(١) حبشى : نور الدين والصليبيون ، الفصل الرابع .

ونعنى به بلاد العراق والشام ، وكان التتار يدركون أن الخلافة العباسية ضعيفة لا تستطيع الصمود أمام هجماتهم الغنيفة ، وأنها لا بد من أن تسقط في القريب على أيديهم أو على أيديسواهم ، أى أنها لا بد آيلة للانهار عند أول ضربة خارجية تصيبها ، وكان التتار يدركون إلى جانب ذلك أيضا أن هذا الدور — ونعنى به مهاجمة بغداد — لا يمكن أن تقوم به القاهرة بأى حال من الأحوال ، إذ أنه رغم قيام المماليك في مصر إلا أنهم يعترفون ضمنا بسيادة الخليفة الروحية ، وعلى ذلك رأى التتار أنهم أحق الناس بأن يرثوا تركة الخلافة العباسية ، لكنهم أدركوا في الوقت ذاته أنه يستحيل على مصر أن تقف من هذا الهجوم المغولى على بغداد موقف المحاييد والمشاهد ، بل لابد لها من أن تهب في وجه المغول تدافعهم عساها تدفعهم عنها ، لذلك وجدوا أن أسلم الطرق لتحقيق مآربهم السياسية القادمة هي العمل يدأ واحدة مع الصليبيين للقضاء على سلطة مصر في الشرق . هذا إلى ما يجب أن نتذكره من أن عطف التتار على المسيحيين في بلادهم واستوزارهم إياهم لم يكن خالصا لوجه الدين ، بل كان تكئة يتكئون عليها فيما بعد لتقريب الهوة التي تفصلهم عن الجماعات المسيحية الغربية .

على أية حال وفدت السفارة المغولية على لويس فأكرم لقاءها وأزله خير منزل ، ثم أنفذ معها جماعة من قبله طالت إقامتها بأرض

التتار مدة عامين ، وكان هدف الملك التتقي — في هذه الظروف الحربية — منصرفاً إلى غير الاستعانة الحربية كما هو منتظر من هو في مثل موقفه ، بل رعى إلى اجتذابهم إلى النصرانية ، فتقوى بهم روحياً ومادياً (١) .

على أن لويس لم يشأ مهاجمة مصر قبل إخبار سلطانها ، وتلك طبيعة الفارس في العصر الوسيط ، فقد بعث لويس إلى الملك الصالح كتاباً جاء فيه قوله : « أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمانة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمانة المحمدية ، وإنى غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصيح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الإيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قُدَّامى الشمع طاعة للصليبان ، ما ردَّنى ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك فى أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدي ، وإن كانت البلاد لك ، والغلبة عليك ، فيدك العليا ممتدة إلى » ، وقد عرفتمك وحذرتم من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا .

ونحن نورد لك هذا الخطاب بأكمله كما ذكره المقرئ مؤرخ

مصر الإسلامية — لا إيماناً منها به ، فإن في قوله « إن كانت البلاد لك . . » ، نعمة تخالف لهجة الكتاب ، ومع ذلك فلا نستبعد أن الكتاب بصورته الراهنة وفي صيغته العربية هذه قد عملت فيه يد التحوير والتبديل والمحسّنات البلاغية ما شاء لها ذوق أصحاب ديوان الرسائل .

وإذا ذهبنا للقول بأن الكتاب حقيقة — في جوهره — من لويس فلا نستبعد أيضاً أنه يحتوي على العناصر الأصلية أو لبعض تلك العناصر التي أراد لويس أن يذكرها لسلطان مصر وأن يحذره من مغبة الوقوف في سبيله ، على أنه يبدو فيه — إذا أخذناه على علاته — إصرار ملك فرنسا على محاربة مصر ، ومحاربتها في مصر ذاتها ، وهو موقف تمام اليقين أن تحقيق هدفه في استخلاص بيت المقدس واسترداد فلسطين وجعلها تابعة لفرنسا إنما يكون عن طريق واحد هو التخلص من مصر التي يعدها العقبة السكتودأمامه ، ويتفق في هذا الرأي المصدران العربي والأفرنجى ، فالأول وهو ابن واصل^(١) يرى أن استعادة الفرنج لبيت المقدس لا تتم إلا بملك الديار المصرية ، والفرنجى — وهو جوانفيل^(٢) — يشير إلى أن كونت دارتوا — أخا الملك — أشار بالزحف على القاهرة دون غيرها من بلدان مصر

(١) ابن واصل : مفرج السكروب ، ورقة ٣٥٥ ب .

(٢) Joinville : Op. Cit. , p. 180 - 181 .

كالإسكندرية ، ذلك — على حدّ قوله « إذا أردت أن تقتل الحية
فهمس رأسها أولاً ، .

ومهما تكن المسألة فالذى يعنيننا فى هذا المجال — وقد أشرنا
إلى رسالة الملك — أن نشير إلى رد السلطان الصالح عليه ، فإنه لم
يجزع ولم يخش تهديد لويس ، بل أجاب بكتاب شديد اللهجة من
إنشاء القاضى بهاء الدين زهير يقول فيه « . وصل كتابك ، وأنت
تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما
قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلورأت
عينك — أيها المغرور — حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم
الحصون والسواحل ، وإخرا بنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان
لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تنزل بك القدم ، فى
يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهناك تسيء بك الظنون ، وسيعلم
الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابى هذا فكن فيه
على أول سورة النحل « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، وكن فيه على
آخر سورة « ص » « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ونعود إلى قوله تبارك
تعالى وهو أصدق القائلين « كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله
والله مع الصابرين » ، وإلى قول الحكماء « إن الباغى له مصرع
وبَغْيُكَ مصرعك وإلى البلاء يقلبك ، والسلام » . ولا نقف من هذا

الكتاب إلا عند الاستشهاد بالآية التي جعلها السلطان ختام كتابه وقفة قصيرة ، لنسأل : « هل نكون على حق إذا استنبطنا منها أن جند مصر كان أقل عدداً ؟ وهل كان عند سلطان مصر نبأ بالكثرة العددية من المحاربين والمخاطرين الأجانب وأنهم يشأون جند مصر عدداً ؟ » إن الرد بالإيجاب على مثل هذا السؤال قد يكون أقرب إلى الحقيقة ، وعلى ضوء هذه الإجابة قد نستطيع تفسير احتلال الصليبيين لدمياط في بداية الأمر دون أن يجدوا عسراً ، ولو رحنا نتلصس جواباً مقنعاً في كتب التاريخ لأعيانا البحث دون جدوى ، ذلك أن المؤرخين عامة يمكنون عن تحليل هذا الانسحاب على الرغم من أن الصالح أيوب كان قد شحن دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوفيرة ، وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة ^(١) كما تقدم إلى أحدهم بالاهتمام بتجهيز الشواني وتسييرها إلى دمياط طبعاً ، كذلك تقدم إلى الأمير نحر الدين بالنزول على جزيرة دمياط بالعساكر ، فنزل بها ، لكن ما كاد الفرنجة يصلون إليها حتى رحل الأمير عنها إلى البر الشرقي ، « وخرج أهل دمياط على وجوههم طول الليل ولم يبق بها أحد ، بل تركوها صفراً من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشمون ^(٢) » ولقد ترتب

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠١ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠١ .

على هذه الأنباء والأخبار المترامية إلى الملك الصالح من جانب الإمبراطور فردريك الثانى أن رأى استجابة الخليفة المستعصم بالله لما رآه من إزالة الجفوة التى بين الحلبيين ومصر ، فتقرر الصلح بين الطرفين ، وذلك أن السلطان كان طريح الفراش حين بلغه خروج الحلبيين وعليهم شمس الدين لؤلؤ الأمينى ، فنازلوا حمص التى اضطرب صاحبها الأشرف للإذعان للتسليم والصلح ، وتسلم الأمينى حمصا ، وأقام بها نوابا لصاحب حلب ، مما أغضب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأنفذ الجيوش إلى الشام لاستنقاذ حمص ، ودام الحصار حتى قدم البادرانى رسول الخليفة ^(١) . ولعل هذه الجفوة لم تكن خافية على لويس ، ولعلها هى السبب الذى كان يدعو للإلحاح على من معه من القادة بالتعجيل لمهاجمة مصر ، وإن أغفل هذه الناحية جميع من كتبوا عن هذه الفترة سواء من الشرقيين أو الغربيين .

تأهب الملك النقي للزحف على مصر بحرا فى أسطول ضخم بلغ قرابة ألف وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ^(٢) ، كما انضم إليه أسطول لابأس به من سفن البيزنطية والجنوية ، الذين هيات لهم هذه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٦ ، أبو الفدا : المختصر ، ص

١٢٥ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، دائرة المعارف الإسلامية

مادة « الملك الصالح » Stevenson : Crusaders in the East, p. 325. Mas

Latrie : Histoire de l'île Chypre, t I, p. 349.

Joinville : Op. Cit., p. 172. (٢)

الحملة فرصة وضع حدّ للنزاع التقليدى الناشب بينهما ، وهكذا استطاع لويس أن يزيل ما بين الفريقين من جفوة ، وإن تكن الإزالة لمدة مؤقتة ، ذلك لأن المنافسة التجارية بينهما كانت على أشدها ، وما كان فى قدرة لويس أو غير لويس — من الملوك والبابوات — أن يخمّد روح المنافسة التجارية بينهما .

٦

خرج لويس بهذه القوات الضخمة من السفن الجمة ، والجند الكشيف ، والعُدَد ، والآلات الحربية ، والمثونة الوفيرة ، واتفق الرأى على الزحف على القاهرة ، وصرف النظر عن احتلال الاسكندرية ، رغم وجود فريق كان من رأيه أن يتجه الأسطول رأساً لعاصمة الوادى الثانية ، نظر ألو وجود مرفأ بها ، ولكن الملك — ومن تابعه — رأوا وجوب مهاجمة دمياط والإسراع فى ذلك الهجوم حتى لا يتيح التأخر أو الإبطاء فرصة للمهايلك فى حشد قواهم وتركيز معداتهم الحربية ، وبذلك يعرقلون زحف الفرنسيين أو تأخير توغلهم فى البلاد المصرية . وخرجت هذه الرغبة إلى حيز التنفيذ ، وأقلعت المراكب والشوانى الفرنجية ، واستطاعت أن ترسو يوم الجمعة ٤ يونيو أمام دمياط ^(٢) التى لم تكن شديدة التحصين هذه المرة ، رغم

(١) التحديد الدقيق وارد فى *Estoire de Eracles*, p. 437 حيث ينص على

اليوم ، راجع أيضا „B, Ibid , Note

أنها كانت على أتم استعداد قبل ذلك بفترة قصيرة ، رغم أن القيادة كانت في يد نحر الدين بن شيخ الشيوخ واستعانت به بعرب كنانة ، ويذهب بعض المؤرخين المحدثين أمثال الأستاذ خروسيه ^(١) لتبرير ضعف الدفاع عن دمياط إلى طول مكث الملك لويس بقبرص ، مع أن المستعرض لهذه الحملة يمكن أن يعزو في شيء من اليقين أو ما يقرب من اليقين استطاعة مصر الاستعداد في فترة تأخر الفرنسيين في قبرص ، وعلى الرغم من أن الأشهر الثمانية التي قضاها لويس بالجزيرة كانت كافية لأن يستعد السلطان غاية الاستعداد ، إلا أن هذه الأشهر ذاتها جعلت الملك الصالح نجم الدين أيوب يحتار في حقيقة مقصد لويس ، أترأه يقصد الشام أم مصر ؟ ومع ما قد يكون في رأى الأستاذ خروسيه من وجاهة غير خافية إلا أنه تبرير لا يجد ما يسند له أو يزيكه ، لاسيما في وقت تعرف فيه البلاد ومن في يدهم مقاليد الأمور أنهم معرضون للغزو الخارجي ، وكان الواجب يقتضيهم تمكث جميع القوى لدفع الخطر ، سواء أكان موجها إلى مصر ذاتها ، أم إلى ما بيدها من بلاد الشام ، على أن هناك شاهديان ^(٢) يحدثان صاقيهما بذله الملك الصالح في الاستعداد لملاقاة الفرنسيين ، « إذا أخذ في جمع الذخائر ، والاقوات والزردخانات ، وآلات الحرب بدمياط ، واستكثر من ذلك ، بدرجة أن ما فيها كان يكفي المدينة مدة سنتين ،

Gruosset : Hist. des Croisades, t. III, p. 440. (١)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٦ ب — ١٣٥٧ .

غير أن تراخى الأمير نحر الدين بن شيخ الشيوخ في الدفاع عنها وقطعه الجسر إلى الجانب الشرقي ثم إخلاءه إياه كان مدعاة للعجب . وقد يمكننا أن نعلل هذا بأن ثقة السلطان به لم تكن قوية بالدرجة التي توجب تفويض الأمور إليه ، ^(١) ذلك أنه رغم بسالته كان يؤخذ عليه أن همته كانت ترقى إلى ما لا ينبغي عليه التفكير فيه ألا وهو الملك كما يذكر أحد معاصريه ^(٢) .

والتاريخ يحدثنا أن السلطان كان رجلا متناهما في الشدة ، يأخذ الجميع بالصغيرة والكبيرة ، والظاهر أنه كان رجلا فيه ميل للانتقام يؤثر رؤية الدم ، وكأنه من أتباع مذهب السادية الذي يقول به علماء النفس ، وهل يمكننا أن نفسر أن التوسل لديه « لا يُقبل ، والشفائع لديه لا تؤثر ، فلا يزداد بهذه الأمور التي تسهل سخائم الصدور إلا انتقاما » ^(٣) أقول هل يمكننا تفسير هذا إلا على ضوء النظرية النفسية السالفة ؟ ، وحسبنا أن نشير في عجل إلى أنه قتل أخاه الملك العادل ، ومات في حبوسه ما ينيف على خمسة آلاف نفس ^(٤) . كما أنه في مرة أخرى شفق كثيرا من السكنايين ، لأنهم خرجوا من

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ب .

(٣) أبوالحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٥ ، العيني : عقد الجمان ، ص

٢٠٤ — ٢٠٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

المدينة بغير إذن^(١) . وذكر صاحب مرآة الزمان أنه لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يحزن لموته إلا القليل ، مع ما كان فيه الناس من قصد الفرنج الديار المصرية واستيلائهم على قلعة منها ، ومع هذا فقد سُرَّ معظم الناس بموته حتى خواصه ، وإذا كنا قد سبقنا الحوادث ، فذكر ناموته في هذا المجال ، فإنما ذكرنا ذلك تأييداً لما نراه من أن لشدة فتكه ، وثقل وطأته على الناس وخواصه ، وكثرة تجبره ، دخلاً في انسحاب الأمير نحر الدين بمن معه من أمام دمياط ، ولعله فعل ذلك قصداً لكي يزيد في علة الملك الصالح فتقضى عليه فيستريح ويريح ، وهو الذي :

سجدت له حتى العيون مهابة أو ماتراها حين يقبل تطرق^(٢) ولقد كان ابن شنيخ الشيوخ لا يغضب لمولاه ولا يرد القوم عنه ، يتجلى هذا في موقف بعضهم حين أرادوا الفتك بالسلطان فحدثوا الأمير بالخبر ، ولو لا يقينهم من أنه يعطف عليهم لما حدثوه ، فقد ذكر مترجموه أنه تغير على الأمير نحر الدين ، وخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان وهمسوا بقتله ، فأشار عليهم نحر الدين بالصبر حتى يتبين أمر السلطان ، قائلاً لهم : اصبروا عليه ، فهو على

(٣) المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٤) البيت من قصيدة طويلة للبها . زهير ، ذكرها عنه أبو المحاسن في النجوم

الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٨ .

شفا ، فإن مات كانت الراحة منه ، وإلا فهو بين أيديكم ،^(١) .

على كل حال أرسى الملك لويس شوانيه ومراكبه أمام دمياط يوم السبت ٥ يونيو على اتفاق بين المؤرخين المسلمين والنصارى^(٢) ، فلما أمسى الليل رحل الأمير نحر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من عساكر المسلمين ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقي الذي فيه دمياط ، وخلي البر الغربي للأفرنج ، وسار ابن شيخ الشيوخ بالعسكر يريد أشموم طنّاح ،^(٣) فلم يجد الصليبيون ما يمنعهم من اقتحام المدينة والامتلاء عليها ، لاسيما بعد رحيل الأمير نحر الدين^(٤) وما يتبع ذلك بطبيعة الحال من خوف أهلها واضطرابهم ، مما حملهم على التسلل ليلا ومتابعة الجند إلى القاهرة ، وتجمعت الأهوال من دعر الناس ، وهزيمة العساكر المملوكية ، وارتداد عرب بني كنانة ، وازدياد ما بيد الصليبيين من العتاد والسلاح ، وامتلاكهم الثغر وما حوى من متاع ، دون أن يصابوا في كثير أو قليل من العدد والرجال^(٥) ، وإن يكن جواثيل يذهب للقول بأن الأهالي عمدوا إلى إشعال النيران

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ، العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٥ ، وراجع أيضا Manus. de Rothelin, p. 589.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ص ١٢٦ ، Manus. de Rothelin, p. 159 .

(٤) Oman : Art of War in the Middle Ages, Vol. 1, p. 341, (٤)

Joinville Op. Cit. Loc. Cit.

فى سوق المدينة حتى لا ينتفع الصليبيون بما فيه ، وهو يذكر هذا الحريق فى أسى ، إذ الظاهر أنه جاء على كل ما فى السوق من غالى المتاع والذخيرة ، يؤيد هذا ما جاء فى رسالة لأحد من شاهدوا الحملة ، حفظها لنا أحد المؤرخين الفرنجة (١) .

على أن الفرنجة وجدوا ما يعرضهم عن ذلك فى بيوت الأهالى ، وما لبث الصليبيون أن شرعوا فى تثبيت رسومهم وشعائهم فى البلد ، فبادروا إلى تحويل مسجده الجامع إلى كنيسة دشنوها للعذراء ، وفعلوا مثل هذا فى بقية مساجد المدينة ، ووهبوا لشتى القديسين والقديسات ، وهذا ما يفسر قول أحدهم فى رسالة له « إلى السيد نيكولا هيرود ، حاجب ملك فرنسا : السلام عليكم والرحمة ، وبعد فأحب أن أفضى إليك بأن الملك والملكة وكونت دارتوا وكونت أنجو وعروسه والناس المباركين قد وصلوا إلى مدينة دمياط التى تحنّ الرب بشفقته ورحمته فردها للنصرانية يوم الأحد » (٢) ، كذلك قاموا بتحصين أسوار المدينة وتشيد الأبراج للدفاع عنها إن فكر المصريون فى العودة لقتالهم بها ، وخوفاً من غارة يشنها عليهم أهل النواحي المجاورة وعربانها : الأمر الذى لاقى منه الفرنسيون الآمرين ، فقد ذكر بعضهم (٣) « أن الحراشفة كانوا يقدمون

(١) Estoire d'Eracles, p. 591.

(٢) Manus. de Rothelin, p. 568 — 569.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

إلى معسكر الفرنجة ويتخطفون منهم ، فلقوا منهم أذى عظيما ، أضف إلى ذلك كله أن الأمور كانت مضطربة في مصر ذاتها ، فالسلطان كان منذ قليل يحارب أحد الخارجين عليه في دمشق ، وهو لم يضع السلاح ولم يرفع الحصار عنها إلا مكرها ، وإن تظاهر باستجابة رجاء مَنْ طَلَبَهُ أَمْرُ عِنْدَهُ ، ومن لا يستطيع ردا لرأى ارتآه ، كما أن السلطان هذا نفسه كان يشكو المرض ، ووقع اليأس من عافيته (١) .

كان من المنتظر في هذا الوضع أن يُتَمَدَّرَ الفرنسيون العامل الزمنى ، إذ أن كل تريث وانتظار حيث هم يتيح للمهاليك أن يلهوا شملهم المتفرق ، وأن يستفيقوا من الذهول الذى استولى عليهم من مهاجمة الحملة لمصر ، ويُمَكِّنَ الأهالى أيضا من التجروء عليهم ، كما كان عليهم أن يقدروا إلى جانب ذلك أيضا جغرافية الوجه البحرى ، أضف إلى هذا وجوب تقديرهم قرب وقت الفيضان مما يترتب عليه أحد أمرين ، إما المبادرة السريعة بالزحف على القاهرة ، وإما تأخير هذا الزحف بضعة أشهر حتى ينخفض منسوب مياه الفيضان وتجف الأراضى فيسهل إذ ذاك على الجيش الفرنسى اختراق البلاد دون مشقة كبرى ، وكان لكل من الأمرين صعوباته ، حيث اضطر الملك لويس رغم أنه إلى التريث انتظارا لمقدم أخيه كونت بواتيه بمن معه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ٣٥٨ ، Oman : Art of

من الرجال ، وما كان للحملة إلا أن تنتظر - وأنفهار اغم - عودة هذا الفريق الكبير من المحاربين ، هذا بالإضافة إلى ما رآه الملك لويس من إجماع رأى الكثيرين من الأمراء والأشراف على اتساع تلك الخطة ، والظاهر أن الملك ذاته لم يكن حريصاً أشد الحرص على المبادرة إلى الخروج ، وربما كان مرجع ذلك رغبته في توفير الراحة - وإن لم يعلن ذلك - لزوجته الملكة الشابة التي صحبته في حملته هذه ، ويؤيد تلك الفكرة أنه عمد إلى إبقاء الملكة في دمياط حين زحفه على القاهرة .

ومهما يكن الأمر فقد بقي الفرنسيون حيث هم ، وهكذا وجدت الحملة الصليبية نفسها في راحة تفرضها عليها طبيعة البلاد الجغرافية ، مما كان ذا تأثير غير كريم فيما بعد في رجالها ، إذ حملتهم الراحة والانتصار المبدي الذي صادفوه في دمياط وتوفر الأوقات لديهم ، واضطراب أمور المصريين ، والإرجاف باشتداد العلة على السلطان ، وتراجعُ عرب بنى كنانة مع العسكر المنهزمين عن دمياط ، حمل ذلك كله الفرنسيين على الانغمار في شتى ضروب اللهو ، ولم يعد لهم همٌّ سوى إشباع أهوائهم وملاً بطونهم والعكوف على صنوف الملذات حتى الجسدية منها ، مما يعيبه عليهم مؤرخهم جوفانفيل يأخذه عليهم ، بل ويعزو إليه ما سيصديهم من الخسائر والهزائم فيما بعد حين

يشدون الرحال للزحف جنوباً ، ذلك الزحف الذى لم يجنوا منه إلا كل مشقة وخسران (١) .

والظاهر أن أخبار الفرنجة لم تخف على المصريين الذين اهتموا فرصة هذا التأخير وما يتيحه من التراخى المعنوى عند الصليبيين ، وأخذوا — بطبيعة الحال — فى الاستعداد لصد العدو الدخيل ، وكانت المدة المنصرمة من يونيو (وهى زمن استيلائهم على دمياط) إلى شهر أكتوبر الذى حددوه لزحفهم على مصر والقاهرة كافية للاستعداد وإكمال التجهيزات الحربية المصرية ، وجاء كثير من الرجال والحرافشة والغزاة المطوعة ، ومن سائر النواحي خلق كثير لا يقع عليهم الإحصاء ، وورد من العربان أمم كثيرة شرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم (٢) ، ولم يشأ المماليك الانتظار فى القاهرة ، بل فكروا — وحسنا ما فعلوا — فى التقدم شمالاً فى الدلتا وتعويق حركة المهاجمين بشتى الوسائل ، وهكذا تغير موقف أهل مصر من الدفاع إلى الهجوم ، ومعنى هذا أنهم أصبحوا فى وضع يخالف كل المخالفة الوضع الذى كانوا عليه فى بادئ الأمر .

٧

وجد المصريون خير مشجع لهم على الاستعداد لدفع العدو فى شخص سلطانهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى كان خير مُوجِّه

(١) Manus. de Rothelin, 567.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٧ ب .

لهم ، رغم أن العلة كانت قد اشتدت به شدة ألزمته الفراش ، وتكالبت عليه أنواع المرض المقعد ، من الناصور في مآبضه ، والسل يهدم كيانه هدمًا ، كما وقعت الأكلة في خده ونخذه من قبل ^(١) ، على أن النفوس الكبيرة لا يُقعدُها المرض ولا تؤمن بسلطان الأوصاب ، بل تسخر بها ولا تتطامن أمام قدرتها ، وإذا كانت النفوس كبارًا كنفوس السلطان الصالح تعبت في مرادها الأجسام ، ولم تقدر العلل على النيل منها ، والمملك نجم الدين كبير الهمة على الأطماع ، « وكانت نفسه تحدثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها ، وانتزاعها من يد ملوكها ، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق » ^(٢) ، وإن رجلا هذا شأنه وتلك أطماعه كفيفيل بأن يجعل النصر يسير في ركابه أنسى سار :

تضجُّ القنا منه لما جشم القنا وتضرع منه الخيل والليل والسرى
هو الرمح فاطعن كيف شئت بصدرة فلن يسأم الهيجا ولن يتكسرا
لقد أنجبت منه الكتائب مدرهاً سريع الخطى للصالحات ميسرا
وصرف منه المملك ما شاء صارما وسهما وخَطَّيْ أودرعا ومغفرا
والواقع أنه جدّد شباب الدولة الأيوبية ، حتى ليقول أبو المحاسن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٥٨ — ١٣٥٩ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٦ ، وابن واصل : مفرج

الكروب ، ص ١٣٥٩ .

عنه ^(١) « وفي الجملة هو عندى أعظم ملوك بنى أيوب ، وأجلهم وأحسنهم رأيا ، وتديرا ومهابه وشجاعة وسوددا بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب » ، هذا هو رأى الجميع فى الصالح نجم الدين ، ومنه نستدل على أن شدة بطشه وفتكه لم تمنع المؤرخين من الثناء على همته وتقدير أطماعه وإكبارها ، وعمله على تحقيق السيادة المصرية ، وإرساء أسسها على قوائم ثابتة الدعائم ^(٢) .

لذلك لا نعجب إذا رأيناه — وهو على ما ذكرنا من المرض المقعد — يأتى إلا أن يساهم بنفسه فى قتال الصليبيين ، ويأمر بالاستعداد لصدهم ، ولا شك أن مثل هذا الموقف من رجل هذه حالة كفيل — فى مثل ذلك الوقت — بتقوية الروح المعنوية فى نفوس المصريين الذين كانوا على الدوام على أتم الاستعداد للتضحية بأنفسهم وأموالهم فى سبيل حفظ البلد سليماً من امتلاك العدو إياه ، لذلك ينكر الملك الصالح نجم الدين أيوب على نفسه ما بها من الأوصاب ، ويغالب ما به من العلل ، فيأمر بأن تضرب الأبواق للرحيل إلى المنصورة ، ففعل المسئولون ما أومروا به ، وما علم المغير أنه — كما قال أحد الشعراء : —

قريب إلى المولى بعيد بعزه على مغنم الأعداء أن يتسهلا

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

إذا طلب الأعداء أنفذ جحفلا لهَـاماً من الإقبال يتبع جحفلا
أما هو ذاته فلم يقعه مرضه المملح عن المساهمة بنفسه في القتال
والإشراف عليه ، فحمل في حراقة ، وأنزل بقصر المنصورة ليكون
على كشب من القتال ، وليشجع مرآه العزائم وإن تسكن في غير حاجة
إلى ما يشجعها ، لما انطوت عليه نفوس المصريين من الرغبة الصادقة
في الجهاد ، ومباغطة العدو قبل أن يباغتهم ، وتأديبه على تلك الحركة
الفاجرة التي دنس بها أرض الوادي ، والتي لم يكن ثم مبرر للقيام
بها . ومن ذلك نرى أن الفرنسيين في القرن الثالث عشر قد حووا
زناداً رُدد إليهم في صدورهم بل وفي كرامتهم كجيش غاز أراد أن
يطأ أرض مصر وفلسطين ويستبيحها للمغيرين الأوربيين . على أن
الذي يسترعى النظر ويستحق الالتفات وينال الإعجاب هو ما انطوى
عليه الشعب المصري على الدوام من وعى قومى كامن ، يخيل لرائيه
من الخارج أنه فاقد إياه ، لكنه إذا جد الجسد وتعقدت الأمور
انكشفت خبيثة نفسه الكريمة ، والشعوب كالمعادن لا يعرف كريمها ،
ولا تدرك قوتها إلا إذا صهرتها المحن ، فأما الضعيف منها فيتلاشى ،
وأما القوى منها فيثبت على الدهر ويطاول الزمن ويكوّن من
الحضارة ما يشهد برسوخ قدمه ، وليس أدل على طبيعة هذا الشعب
الطيبة من أنه خرج عن بكرة أبيه غداة مقدم لويس تجاه المنصورة
لدفعه هو وجنده ومعداته ، فيشهد المؤرخون أن قد جاءت الغزاة

والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد ، ، وهذه العبارة من مؤرخ عرف بالدقة لفظا وتبيان الحقيقة تشهد باشتراك العامة إلى جانب قوات الحكومة النظامية ، وهم مدفوعون إلى ذلك النضال بدوافع شريفة زكية ، خالصة لوجه الله والوطن ، على أن هناك إلى جانب هذه المسألة مسألة أخرى تستحق النظر هي وقوف أهل البلاد ومن انضم إليهم من العرب جنبا إلى جنب ، وهكذا كان في مصر منذ سبعة قرون تماما وحدة عربية مصرية ، لم تدع إليها الرسميات ، ولكنها وجدت ونمت نظراً لأن طبيعة الحياة تقتضى التعاون ، وتشعر بروح الأخوة بين المصريين والعرب ، ولقد ساهم أولئك العرب بنصيب غير منكور في الحرب عند الحملة الفرنسية ، وتكاثفت القوى المختلفة لحماية عسكر الأمير نحر الدين بن شيخ الشيوخ من الخلف ، بل إن هذه القوات غير النظامية كان لها فضل غير محدود فيما لاقاه الصليبيون من الهزيمة النكراء والقتل المروع في حواري المنصورة وشوارعها .

على أية حال تكاثفت قوى الحكومة مع قوى الشعب ، وأنفذ السلطان المراكب الحربية من القاهرة تحمل المئونة والذخيرة والعتاد والرجال والمجاهدين والغزاة إلى المنصورة ، وكان اختيار هذه المدينة على وجه الخصوص براعة استهلال من المصريين ، وذلك لأنها من المواقع الحصينة ، وقلعة مصر في الدفاع وتحطيم المغير القادم من الشمال .

أما لويس التاسع فقد تحرك هو الآخر للزحف بعد أن ترك
دمياط في حراسة قوية ، وبعد أن اطمأن خاطره إلى حصانة أسوار
المدينة وأبراجها ، وإلى أن المصريين لا يستطيعون — إن أرادوا —
مهاجمتها مهاجمة جدية ، وإنما قد لا يعدو الأمر أن يكون مناوشات
بعيدة عن المركز ، لذلك غادر المدينة بجيشه العظيم ، ومن حوله إخوته
وباروناته وأشرف المملكة الفرنسية والأمراء الإقطاعيون
والفرسان التابعون لهم ، وعسكرت هذه القوات الضخمة على
الشاطئ الغربي في المكان الواقع بين رأس البر وكفر البطيخ . على
أن الأمر لم يخل من مناوشات فردية كبدت المعسكر الفرنسي
خسائر غير طفيفة ، إذ أخذ أفراد من المصريين والعرب يتسللون
ليلاً إلى معسكر الصليبيين ويقتحمونه سرا دون أن يدرى بهم
أحد ما ، ثم يكبسون بعض الجند فيقتلونهم ، أو يأخذون بعضهم
أسرى إلى القاهرة ^(١) ، وكان الفرنج « يجدون من حراسة
المسلمين أذى كبيراً » ^(٢) دون أن يستطيع الفرنسيون أن ينالوا
منهم شيئاً ، ويعمل « جوانفيل » مرجع قدرة هؤلاء الأفراد المغيرين
إلى أن عادة الحراس الفرنسيين جرت بأن يركبوا الجياد ويمضوا
إلى حراسة المعسكر ، فكان المصريون ينتظرون حتى تهدأ الحركة

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٥ ب — ١٣٦٦ .

وينام الجند ، ويتبعد وقع حوافر الخيول فينطلقون مغيرين على الخيم ، مما حمل الملك لويس في النهاية على جعل الحراس مشاة ^(١) ، ومهما يكن الأمر فإن المسلمين قد استطاعوا إصابة عدد لا بأس به من الأسرى يقدره المقریزی ^(٢) بمائة وتسعين أسيراً .

على أن الصليبيين — وقد عسكروا على الشاطئ الغربي لفرع دمياط — ارتكبوا خطأ جسيماً ^(٣) فيه دمارهم ، كما ارتكبه من قبل جان برين ، ويقول كاتب حديث ^(٤) « لا يملك الإنسان إلا أن يتعجب من جرأة لويس على اختيار نفس الطريق الذي شقه برين من قبله » ، فقد كان في قدرة المصريين يومذاك أن يحولوا بين المغير وبين التوغل جنوباً بقطع السدود وغمر أرض الدلتا بالمياه الغزيرة دون أن يخسروا شيئاً ، أو لا تكون خسارتهم شيئاً مذكوراً .

اجتمع مجلس المشورة الملوكي وضم الرجال البارزين في الجيش والاسطول وكذلك كبار الأمراء والكونتات والبارونات ومقدمي الفرسان من الاسبتارية والداوية ، وكان التمام هذا المجلس في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر ١٢٤٩ م ، وهنا ظهرت مسألة ثار حولها الجدل العنيف: هي هل تنجيه الحملة شطر القاهرة أم الإسكندرية ؟ ،

Joinville's Memoirs, p. 196 — 197. (١)

(٢) المقریزی : شرحه .

Davis : The Invasion of Egypt, p. 25. (٣)

Oman : Art of war in the Middle Ages, Vol. 1, p. 267. (٤)

وطبيعى أن تختلف الآراء، وأن يكون رجال الأسطول والبحرية من المؤيدين للزحف على الإسكندرية، وحنة هذا الفريق أنه لا يؤمن جانب أهل مصر إذا استولى الجيش على وطنهم، ولا ينبغي الاطمئنان إليهم حتى ولو أظهروا غاية المودة والخضوع، والتزموا جانب السكينة والهدوء، أضف إلى هذا أنه باستيلاء الفرنسيين على الساحل يكونون قد ضمنوا سلامة الساحل المصرى الشمالى، ووثقوا باطمئنان السفن القادمة إليهم من فرنسا وغيرها من البلدان الأوربية، والتي تحمل إليهم ما قد يحتاجون إليه من الإمدادات والذخائر والعُدَد والرجال، ولا شك أن لهذا رأى وجاهته وقيمتة، بل إنه فى نظرنا كان أجدى على الفرنسيين من التحرك إلى الجنوب فى منطقة الدلتا ذات الأرض اللينة الرخوة من جراء الفيضان، والتي تكثر بها فروع النيل وقنواته، حتى لكانها شبكة الصائد، مما لم يتعوده الصليبيون. وأيد هذا الفكرة رجل له خبرة سالفة بالشرق وحروبه ذلك هو Pierre Mauclère كونت بريتانى، بيد أنه وجد مقاومة شديدة من جانب أخى الملك كونت دارتوا الذى سعى إلى حثفه بظلفه، وصمم على وجوب مهاجمة القاهرة دون الإسكندرية خاصة، ودون بقية مدن الدلتا عامة، وكان فى كونت دارتوا اندفاع وتهور وطيئش، وهكنا اجتمعت هذه الصفات لتؤدى به إلى هلكة ودماره، واحتجبت الفطنة وحسن إدراك الأمور والتقدير

الصحيح لخواتيم كان من الواجب عليه وعلى أمثاله أن يعرفوها
ويقدروها تمام التقدير ، ومن على زلقا عن غرة زلت به القدم ،
وكان أولى به أن يقدر لرجله موضعها قبل الخطو ليكون على بينة
من أمره وأمر من معه من المحاربين الفرنسيين ، وليس بنافع
الكونت أن ينهض فيما بعد من يدافع عنه ويبرر موقفه بأنه لم
يكن يعرف طبيعة الأرض المصرية ، ولو كان هناك عند الفرنسيين
اقتداء بالماضى وتجنب أخطائه لأدركوا فشل مثل هذه الحملة
قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، أعنى سنة ١٢٢١ م ، لكن أخا الظلماء
أعشى بالليل ، وقد حسبوا أن النصر مواتيهم على طرف التمام
استهانة وجهلا ، ومورد الجهل وبئس المنهل .

وحسبنا أن نعرف أن من انضم إلى الكونت في تأييد هذا
الرأى الفطير البطرك روبرت ، ولم يكن له أنى علم بالشتون الحربية ،
ولكنه أبى إلا أن يزج بنفسه في معترك ليس هو من أقطابه ،
ومدعى العلم بالكثرة حرى بأن يلقي مصرعه وشيكا ، ومن لم يعرف
الشر ويقدره قبل الخير كان أجدر به أن يتردى فيه ويجر ذويه إلى
ما فيه ضرهم وهلاكهم ^(١) .

على أننا نستطيع أن نتلص علة نبرر بها — في هذا المجال —
تأييد كونت دارتوا الفكرة الهجوم على القاهرة دون الإسكندرية ،

(١) Lavis : Histoire de France, p. 336.

وأكبر الظن أنه فكر في هذا الهجوم لما علم برغبة الملك الصالح في الجنوح إلى السلم ، وقد خلت المراجع من الإشارة إلى هذه الحركة من جانب سلطان مصر ، على أن شاهد عيان صليبي قد أورها بالتفصيل ، ذلك هو « ماتيوس بارييس » ^(١) ، الذي يزعم — إن صدقا أو كذبا — أن سلطان مصر — وقد ألحست عليه العلة وخاف موافاة أجله قبل أن يدفع الصليبيين عن البلاد — تقدم إليهم بيسألهم أن يترجعوا إليه دمياط ، لقاء تنازله لهم عن عسقلان وبيت المقدس وطبرية ، وكان الملك الصالح قد استرد عسقلان من الفرنجة الذين تسلموها من عمه الصالح اسماعيل قبل ذلك بعام واحد تقريبا ^(٢) ، كما أن الملك الناصر داود كان قد استرد القدس من قبل ^(٣) ، وليس من المستبعد أن يكون الملك الصالح نجم الدين

Grousset : Hist. des Croisades, (d'après Matthiew Paris). (١)

(٢) راجع كتاب الروضتين لأبي شامة ، ص ١٩٤ ؛ عقد الجمان للعيني ،

ص ٢٠٠ ، المختصر لأبي الفداء ، ص ١٢٥ ، وكذلك Lane-Poole : Hist.

Egypt in the Middle Ages, p. 230 — 231.

(٣) كانت القدس في يد الفرنجة منذ أن سلمها الكامل إلى الإمبراطور

غردريك الثاني ، وفي استرداده يقول جمال الدين بن مطروح المصري :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً

إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً

فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخراً

راجع ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٣٣ ب ، والعيني : عقد الجمان ،

أيوب قد تقدم بهذه العروض أو ما يشابهها ، وربما حمله على ذلك
 مارآه من موقف الأمير نحر الدين بن شيخ الشيوخ ، وخوفه من
 تسرعه فيما ارتكبه هو ذاته من قتل الكثيرين من زعماء بن كنانة
 عقب ارتدادهم عن دمياط ، وخاف أن تحدثهم نفوسهم — وقد
 حدثهم فعلا — بالوثوب عليه والفتك به ، أضف إلى هذا عدم
 وجود ولده تورانشاه بمصر يومذاك ، وتغييبه عنها في حصن كيفا .
 جرت هذه الأحداث جميعها ولا يزال الصليبيون قرب دمياط ،
 وتبين لهم خطأ مسلكهم في اتباع هذا الطريق في الزحف على مصر ،
 على أنهم ماكدوا يتحركون إلى القاهرة حتى وافاهم نهي السلطان
 الصالح نجم الدين متأثراً بجراحه ، وبالسل الذي نخر جسمه رغم
 صغر سنه ومتانة بنيته ، ولم يحل قصر حياته عن نهوضه بالجسيم
 من الأعمال :

مد يداً إلى المني فنهاها والعمر ما مد له السنينا
 ترى الوقار والجلوم زنة معتدلاً في خلقه موزونا
 لم يفترش عجز آفي الرأي ولا ساور في الأمر الهوى الظنينا

كان موت السلطان حرياً بأن يضعف العزائم ويفل من غرب
 الهمم القوية الناهضة لقتال الفرنسيين ، على أن مشاهد القوة يومذاك
 انطوت في مسوح الضعف ، ولو حُكِم الظاهر يومئذ لقضى بفشل
 المصريين وضمان النصر الأكيد للصليبيين ، ذلك أنه لم يكن ثم أحداً

من أدنى الذكور إلى الملك الصالح قادراً على أن يتولى الأمر من بعده ، لاسيما وابنه تورانشاه متغيب عن البلاد في حصن كيفا ، بل إن تورانشاه هذا ذاته كان غير مرضى عنه من أبيه ، لما هو عليه من الهرج^(١) والاضطراب ؛ كما أن هناك من الكتاب من يذكر أن السلطان قال لأحد أمرائه وهو الأمير حسام الدين بن أبي علي : « إذا مت لاتسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ليرى فيهارأيه^(٢) ، فإن صحت نسبة هذا القول إلى السلطان الراحل فهي دلالة صريحة على أنه كان غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى تولى تورانشاه الحكم ، أضف إلى هذا أنه لم يكن ثمة أحد من أدنى الناس إليه وأمسهم به رحماً سوى زوجه شجر الدر ، وكان المعتقد أن مثلها لا تستطيع تدبير شؤون الحكم لو مات الملك أيوب ، على أنها برهنت على أنها امرأة قادرة ، عبقرية التفكير والإرادة ، حازمة في تصرفها للأمور بما يتلاءم وخير الدولة المصرية والصالح العام^(٣) .

نظرت شجر الدر فيما حولها بعد موت زوجها فلم تجد سوى الأمير نحر الدين بن شيخ الشيوخ ، فدعته ، وأفضت إليه بنأ موت السلطان الصالح نجم الدين ، وطلبت إليه أن يبقى حيث هو في قيادته

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ٣٦٠ ب .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ١٣٦٣ .

(٣) Davis : The Invasion of Egypt, p . 20 .

للجيش ، وبعثت في طلب الطواشي جمال الدين محسن الذى كان « أقرب الناس إلى السلطان ، وإليه القيام بأمر ممالكه وحاشيته »^(١) ، وأوقفته على جليلة الخبر . وهكذا انعقد فى القصر السلطانى مجلس ثلاثى قوامه زوجة الصالح أيوب وقائده وطواشيه ، واتفقوا على أن يكتموا خبر موت السلطان عن الجميع ، وأن يبعثوا برسول إلى تورانشاه فى حصن كيفا يفضى إليه بالخبر ، ويحثه على الإسراع بالقدوم ، وقد فعلت ذلك شجرة الدر على الرغم من أن تورانشاه لم يكن ولدها . ودلت الأميرة بهذا العمل على استعدادها التام للتضحية فى سبيل مصر وفى سبيل حفظ المثلک سليما من وثوب المتمردين والطامعين ، الذين لم يكن يردعهم عن ذلك الوثوب سوى بقاء السلطان حيا ، وشدة سطوته وبأسه ، ولعلها كانت تخشى على وجه الخصوص جماعة المالك والأكراد الذين أزالهم عن القوة والسلطان ، مما حمله من قبل على الإكثار من المالك الخاصة الذين أسكنهم منيل الروضة ، وسماهم « بالبحرية »^(٢) .

على أية حال ظل الأمر مكتوما فترة قصيرة ، استطاع الثلاثة خلالها أن يأخذوا البيعة للسلطان الجديد ، دون أن يداخل الناس ريب فى حياة السلطان ، وإنما فسروا احتجابه عنهم باشتداد العلة

(١) المفريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٤٢—٣٤٣ .

(٢) Lane-Poole : Hist of Egypt in the Middle Ages, p.232—233 .

عليه وحاجته الماسة إلى الاعتكاف ، أضف إلى هذا أن الكتب والمراسيم السلطانية كانت تخرج من القصر وعليها توقيع السلطان ، والفضل في ذلك راجع إلى براعة شجر الدر التي كانت تتقن غاية الإتيان تقليد خط زوجها تقليداً لم يدع للشك سبيلاً في أن يتطرق إلى أحداً في صحة هذه التوقيعات ^(١) ، وإن يكن ابن واصل — معاصر هذه الأحداث وشاهدها ومؤرخها — يذكر أنه لم تجز عليه الحيلة ، وأدرك من أمور معينة موت السلطان رغم شدة اختفاء الأمر ^(٢) . على أن خبر الموت ما لبث أن شاع بين صفوف الجند ، ولم يبق مكتوماً عن الأهالي ، وتراعى نبؤة بطبيعة الحال إلى المعسكر الصليبي ، فوجد الملك لويس الفرصة مواتية للمبادرة بالزحف على القاهرة والاستيلاء عليها قبل وصول تورانشاه إليها ، وفي هذا الصدد يقول العيني ^(٣) « إنهم لما تحققوا خبر موت السلطان خرجوا عن دمياط بفارسهم وراجلهم وشوانهم في بحر النيل ، ونزلوا على فارسكور ، وتقدموا منها مرحلة ، فأرسل الأمير نحر الدين إلى القاهرة ومصر يستنفر الناس للجهاد » اهتزت الدوائر المسؤولة في مصر لهذه الحركة المباغتة من جانب

(١) أبو الفدا : المختصر ، ص ١٢٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٦٢ — ١٣٦٣ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٧ .

الفرنسيين ، وقرىء في جامع القاهرة كتاب فيه حض الناس على الجهاد ، لم يذكر ابن واصل سوى مقدمته التي جاءت فيها الآية « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . ولم يعن جمال الدين بإيراده كاملاً ، بل كل ما قال عنه « إنه كتاب بليغ أظنه بإنشاء بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة ، وتحريض على قتال الكفار ، وإن الفرنج قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية ^(١) » .

ومهما يكن الأمر فقد نهضت الحملة ، واجتازت منطقة ثلاثية واقعة في الشمال الشرقي من بحيرة المنزلة ، ويحدها من الشمال الغربي فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي بما كان يعرف بفرع « أشموم طناح » ، الذي يعرف اليوم بالبحر الصغير ^(٢) .

لم يكن الأمير نحر الدين بالقائد الذي يستهان به ، وما كان فراره من دمياط يوم مقدم الصليبيين إليها إلا عجيبة في تاريخه ، وهو الفارس القائد باعتراف الإمبراطور فردريك الثاني صديقه الحميم ، ولما رأى نحر الدين أنه المسئول الأول في هذا الظرف الجديد — عن سلامة البلاد فقد رتب صفوفه ترتيباً على كفاءته الحربية ، وعلى أن ثقة السلطان الصالح من قبل وشجر الدر به الآن ليست خبط

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٥ .

(٢) Schefer : Archives de l'Orient Latin, t. II , p. 95 — 96 .

عشواء ، وإنما جاءت عن حكمة وترو ، وإن الأول منهما — على الأقل — كان قد عجم عود القواد فلم يجد أقوى ولا أحرص منه على سلامة الجيش وسلامة الدولة المصرية . والمشاهد في هذا العصر على وجه العموم أن الأمير أو السلطان — رغم مشاغل الحكم — كان قادراً على قيادة الجيش والخوض به في المعارك بما يضمن النجاح في الغالب إن لم يكن على الدوام ، فما بالك برجل ليس له من عمل سوى الحرب وتقدير ظروفها ؟ ولهذا نرى أن الأمير نحر الدين بن شيخ الشيوخ قد أوقف القوات المملوكية دون البحر الصغير لتحول بين الصليبيين وبين عبور النهر ، وبذلك يصبحون محاصرين حيث هم في جزيرة دمياط ، وبقي هو في المنصورة . وفي ختام الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٩ م قام — والفجر قد أوشك أن يتنفس — بهجوم خاطف هو وجماعة يبلغون ستمائة رجل ، اختارهم من خيرة فرسانه الأشاوس ، وفاجأوا العدو فيما بين فارسكور وشرمساح ، ولم يجدوا مقاومة إلا من جانب « الداوية » ، الذين هزمهم وأثار حميتهم منظر رئيسهم « رينو فيشييه » وقد طرحه المالك أرضاً ، فاستمر القتال بين الفريقين ، وقتل في هذه المعركة جمع غفير من المصريين وفيهم العلائي أمير مجلس . وكان ذلك الاشتجار رغم أوامر لويس ، الذي ما كادت المعركة تنجلي حتى ذهب بجيشه وعسكره عند « شرمساح »^(١)

(١) وتعرف عند كتاب الصليبيين في هذا العصر باسم « Seresaph » ، راجع في ذلك « i » ، Estoire de Eracles , p. 437 et note

ذاتها ، تم انتقل منها إلى « البرمون » ، وأهمية هذا الموقف هو أنه جعل الصليبيين في مواجهة المنصورة حيث توجد القوات المصرية ، ولم يعد يفصل الفريقين بعضهما عن بعض سوى بحر أشمون ، كذلك لم تعد المسألة بين المصافين أكثر من مناوشات غير حاسمة في تقرير مصير الحرب أو في ترجيح كفة أحد الجانبين ، واعتمد اليزك المصرى إلى حد بعيد على الجماعات غير النظامية ، وهم أفراد مخاطرون كانوا يجازفون بأنفسهم في اقتحام المعسكرات الصليبية بعد أن يعبروا النهر سباحة إليه ، فيصيرون ماتقع عليه أيديهم ، سواء أكان ذلك في الرجال أم المتاع والعدد ، ثم يتسللون لوإذا تحت جناح الدجى وفي غبش ^(١) الظلام ، ويروى المقريزى ^(٢) ما عمد إليه أحدهم من أنه أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم في الماء ليتناولها حتى اختطفه السابح ، وعام به ، وقدم به على المصريين ، ويشير جوائفل — هو الآخر — إلى أمثال هذه الأعمال . ^(٣)

انزعج خاطر لويس التاسع لهذه النكبات التي ينكب بها رجاله

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٧ ب ، ٣٦٥ ب — ١٣٦٦ ،

والعيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٣) وهي مطابقة لما يورده ابن واصل ، راجع Joinville's Memoirs , p.199-200 .

كل ليلة على أيدي أفراد من المصريين ، يكبدونه فيها خسائر ليست بالطفيفة ، ويلحقون القوضى بصفوف جنسده ، ويثشون الذعر والقلق بينهم ، لذلك عهد إلى إخوته الثلاثة بحراسة أقسام المعسكر المختلفة ليلاً ، وحدد لكل واحد منهم منطقته المسئول عنها أمامه مباشرة ، وكان من بين من اشترك في هذه الحراسة «جوانفيل»^(١) ، صاحب المذكرات الفريدة في بابها عن هذه الحملة ،

علم الأمير نحر الدين بن شيخ الشيوخ نبأ هذه الاستعدادات ، وأدرك مكانة الجد في ما يهدف إليه الملك الفرنسي ، فرأى أن خير ما يعتمد عليه هو مباغطة القوات الصليبية على حين غفلة ، ودون أن تأخذ للأمر أهبتها ، علماً منه بأن سياسة المباغطة أجدى لصالحه وأحسن ما يمكن اتباعه لبث الاضطراب في معسكر العدو الأجنبي ، وكان الأمير نحر الدين يعلم إلى جانب هذا ما تكبدته الحملة من المشاق والأهوال في عبور مسافة صغيرة ، حتى لقد استغرقت ما يقرب من شهر في إعداد طريق لم يتجاوز طوله خمسين^(٢) ميلاً ، والظاهر أن القائد المملوكي أسرف في الآمال العريضة ، إذ وعد رجاله بتناول طعام الغداء في فسطاط الملك لويس يوم عيد العنصرة

(1) Joinville's Memoirs p. 193 — 194

(2) Manus. de Rothelin, p. 597 ; Lane-Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 233.

كما يزعم أحد كتاب الحملة ^(١)، ولعله — ونعني الأمير — كان واثقا من هزيمته للصليبيين وسرعة تغلبه عليهم ، وربما كان الذي أطمعه في هذا الأمر طول المدة التي قضاها الفرسيون في البلاد منذ تقدمهم إلى دمياط حتى هذه اللحظة ، دون أن يستطيعوا التقدم كثيرا إلى الجنوب ^(٢) ، وعلى هذا يمكن أن نجزم بأن الوقت كلها طال كلها كان ذلك في خدمة المصريين .

جمع الأمير نحر الدين بعض قواته وفاجأ المعسكر الصليبي من ناحيته الشمالية، وتختلف المصادر العربية والفرنجية في تقدير نتيجة هذا القتال ، فبينما نرى أحدهم ^(٣) يؤكد استظهار المصريين على الفرنجة استظهاراً عظيماً ، إذا بالكتاب الغربيين أمثال جوانفيل ^(٤) وروتلين ^(٥) يؤكدون أن الصليبيين دفعوا المصريين وكبدوهم خسائر فادحة ، ولعل التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين تمام التناقض يكون مقبولا إذا قررنا أن كلا من كتاب الفريقين أشار فيما يتعلق بالنصر الذي لاقاه رجاله في بعض مراحل القتال ، وإن

(١) Joinville's Memoirs, p. 202 — 205.

(٢) Manus. de Rothelin, p. 597.

(٣) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٤) Joinville Memoirs. loc. Cit.

(٥) Manusc. de Rothelin. loc cit.

يكن الواقع أنه يُعد — من وجهة النظر الشرقية — نصرا ، لأنه عاق
العدو عن التقدم وعبور البحر الصغير ، لذلك أمر الملك لويس
بإقامة حاجز على البحر على مسافة نصف فرسخ من التقائه بالنيل ،
كما أمر بإقامة برجين عظيمين ، يشهد المؤرخون وكتاب الحملة بأنهما
كانا غاية في القوة وحسن الاستعداد . وكان المنتظر في هذه الحال
أن يكون البرجان ذوى فائدة للصليبيين في تحطيم الاستعدادات
المصرية ، لكن جرت الأمور عكس ما هو منتظر ، فقد تمكن
المصريون من تحطيم البرجين الصليبيين بفضـل استعمالهم النار
الإغريقية ، التي أخذت من بهما من الجنود من كل جانب ، حتى
أصبحوا يرون الغنيمة في الخروج منهما سالمين ، ولكن دون ذلك
أهوال النيران وسهام المالك تنوشهم من كل ناحية . واستطاعت
القوات المصرية تكبيد العدو خسائر جمة غير منكورة ، فلما رأى
لويس ما فيه رجاله من البلوى والمحنة ، لم يجد غير العكوف على
الصلاة سبيلا ، عسى أن تدفع عنهم ذلك الخطر المهلك والموت
الأكيد .

تبين للصليبيين إذ ذاك صعوبة — بل استحالة — المرور إلى
بقيتهم وعبور النهر ، نظراً لوجود القوة المملوكية المرابطة بآلاتها
الضخمة على الشاطئ الآخر ، واستعانتها بالنار الإغريقية ، على
أن الظروف عاوت الحملة الفرنسية إلى حذب بعيد ، كما يقول التاريخ ،

أو أن صلاة لويس استجيبت ، كما يقول مؤرخه ، فتهيأت له ولرجاله النجاة بعد أن يؤسوا منها أو كادوا ، وتهيأ لهم من النجاة أكثر مما كانوا يتصورون أو بما قد يحول بهال المتفائلين منهم ، وذلك حين قدم أحد الأعراب ^(١) عارضاً خدماته على الجيش الصليبي بأن يذله على مخاضة عند « سلمون » ، لقاء مبلغ معين من المال يتسلمه مقدماً ، فقبل الملك ما عرضه الأعرابي ، وأجابه إلى طلبه الخسيس .

على أن الملك لم يشأ أن يعبر الجيش بأكمله مرة واحدة يوم ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ ، بل اختار فيلقاً كبيراً من البارونات وأتباعهم من العسكر لعبور البحر الصغير ، فكان في المقدمة فرسان الداوية ، يتلوهم فريق كونت دارتوا ، وكانت أوامر الملك صريحة — وكأنه يرى الغيب — ألا يتقدم أحد ما أمامه ، وكأن نشوة العبور بثت روح الحماسة في نفوس جماعة الفرنسيين ، فانتالوا — والفجر لم يشرق بعد — على معسكر المصريين ^(٢) وفاجأوهم على حين غرة ، وعلا الصرخ ، ووصل إلى سمع الأمير نحر الدين ، وكان إذ ذاك في الحمام ، فهرول مستظلاً جليلة الأمر ، فعلم أن الصليبيين قد تهيأ لهم عبور « البحر الصغير » في غفلة من المالك ومن العسكر ، ولم يقتصروا على ذلك العبور بل واتهم الشجاعة ودفعهم الحماسة ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ب ، Manus. de Rothelin .

P.602; Reinaud: Extraits des Historiens Arabs, p. 458.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ص ١٩٦ .

فاقتحموا المعسكر المصرى واختلطوا به ، وأخذوا يُعْمَلون
السيف فى رقاب القوم وهم نيام ، أو بين اليقظة والنوم ، واختلط
الحابل بالنابل ، وعمَّ الاضطراب اليك المملوكى ، إذ لم يكن يتوقع
مثل هذا الهجوم المفاجئ ، وإن كان ذلك التبرير لا يبرر عدم اتخاذهم
كل أساليب الحيلة ، إذ الحرب خدعة .

على أية حال أسرع الأمير نحر الدين بامتطاء جواده غير قاصد
الحرب ، إذ لم يكن فى درعه ولا لامته ، ولم يكن بالمتحفظ أو
المستعد ، ولكن أملا منه فى أن يحمل الجند على الركوب ويثبتت
أقدامهم ، ولم يكن يقدر أن حينه قد حان ، وأن الصليبيين قد نصبوا
له كميناً فى الطريق سرعان ما تردى فيه ، فأقبل عليه فرسان الداوية
تنوشه سيوفهم ، فاستشهد^(١) :

وأسمى شهيداً ثاوياً فى عصابة يصابون فى فج من الأرض خائف
وفقد الجيش بقتله قائداً من أبرز قواد تلك الفترة ، وفارساً لم
يستطع الغرب والإمبراطور فردريك الثانى إلا الاعتراف بفروسيته :
لئن قتلتم عميداً لم يكن صدداً لنقتلن مثله منكم ، فنممثل
لئن منيت بنا عن غب معركة لا تلفنا عن دماء القوم ننقتل
فاجب للمقادير فى تصرفاتها .

قائدى رمى بنفسه فى غمرات الأهوال ، ويقتحم الأخطار ، ويواجه
الموت حيث تشببك السيوف وتلتحم الأسلحة فلا يصيبه شيء ، حتى
إذا وافاه حينه لقي الموت من حيث لا يحتسب ولا يرجو ؛ ولكن :

(١) أبو الفداء : المختصر ، ص ١٢٨ .

إذا أنت أفنيت العرائن والذرى رمتك الليالى عن يد الخامل الغمر
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى فمن ليدترميك من حيث لا تدري؟

ليس من شك فى أن نهار الثلاثاء خامس ذى القعدة (٨ فبراير ١٢٥٠) كان ذا شقين ، أحدهما يحمل فرحة البشرى إلى معسكر الفرنجة ، والآخر كان نذير سوء للمعسكر الإسلامى من جراء مصرع قائده ابن شيخ الشيوخ ، والواقع أن هذا الهجوم المفاجئ على اليك المصرى كان بإقدام كونت دارتوا^(١) الذى أنسته نشوة النصر إبتاع أوامر الملك بالانتظار حتى تفد بقية ~~العسكر~~ الصليبي ، ويقرر جوانقيل^(٢) أن ذلك العمل — رغم أكله الطيبة المبكرة — قد أغضب الداوية ، حيث أنهم كانوا فى المقدمة ولكن السكونت تخطاهم ، وقد لازمه هذا التهور والاندفاع ، مما أدى إلى مصرعه بعد قليل^(٣) .

٩

كانت مقدمة الجيش الصليبي هى التى أسعفها الوقت بعبور الجسر الصغير ، وهذه المقدمة مؤلفة — كما ذكرنا — من فرسان الداوية وفريق السكونت دارتوا ، ويذكر مؤرخ سيرة الملك أن هذه السكونت

(١) المقربى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

(٢) Joinville : Memoirs, p.192-193 .

(٣) Oman : Art of War in the Middle Ages, Vol. I, p. 350-352 .

من الفرسان وأتباعهم ما كادت تعبر مخاضة السهون ويبصرهم
 المالك حتى انطلق منهم ثلاثمائة مملوك فراراً ، فشجع ذلك الفرار
 الصليبيين ، وعلى الأخص كونت دارتوا ، الذي لم يعبأ بأوامر الملك
 القاضية بالوقوف حيث هم حتى يلبثهم شمل بقية الصفوف ، ويتوافد
 جمع الفرسان وأتباعهم ، والبارونات وجنودهم . ولم يكن في
 الاستطاعة بطبيعة الحال أن يعبر الجيش بأكمله المخاضة دفعة واحدة ،
 وإلا وقف الممالك على سر المؤامرة الصليبية ، وأفسدوا على أصحابها
 تدبيرهم ، وبذلك تذهب ريح الصليبيين ويفشلون في تحقيق الغاية
 التي سعوا إليها مبكرين .

على أن فرار هؤلاء المالك الثلاثمائة بعث الفتوة في
 نفس كونت دارتوا ، وكان الواجب يقتضيه أن يتبصر الأمر
 عسى أن يكون الرفق في الأمر أرشد ، لكنه نسي أوامر أخيه
 أو تناساها ، وضرب بها عرض الحائط ، ولم يصيح سمعاً إلى
 تحذيرات فرسان الداوية الذين كانوا معه والذين أرادوا أن يحلوا
 بينه وبين ما هو قادم عليه مما يغضب الملك منه ، والذين كانوا بلا شك
 أدري منه بفنون الحرب والقتال ، وكانوا أعلم بكيفية معالجة
 الموقف الحربي بما يضمن النصر للجيش الفرنسي ، وينص أحد
 مشاهدي هذه الواقعة على خطأ السكونت . بل يذكر أقوال الأخ
 جيل Giles مقدم الداوية فيقول بهذا الصدد « إن الأخ جيل
 الفارس المعلم القوى ، والملم بالحرب ، والبارع في تدبير عامة

الشتون ، قال للكونت دارتوا إنه يجب عليه هو ومن معه التريث والتجمع وانتظار الملك والفرق الحربية الأخرى التي لم تعبر المخاضة بعد^(١) ، ولكنه تجاهل ذلك كله وتقدم غير هياب ولا وجل ، وكان في الإمكان الاكتفاء مؤقتاً بما ناله الصليبيون قبل لحظات من نصر كان مظهره المادى مقتل الأمير عز الدين على حين غفلة منه ودون أن يأخذ الأمر أهـبـته ، وإذا القلوب استرسلت في غيها كانت بليتها على الأجسام . على أن التهور الذى يلاحق الأرعن يأبى أن يفارقه ، فيحسب الاندفاع في الحرب دون تقدير لما يترتب على ذلك الإقدام من هلاكه وهلاك من معه شجاعة ، وما رأى لإقبالها ، وكان الواجب يقتضى من كونت دارتوا أن يستجيب إلى رجاء فرسان الداوية الذين كانوا أكثر إلماماً منه بأساليب الحروب الشرقية وقاتل المماليك على وجه الخصوص^(٢) ، ولكنه رماهم بالجبن وعيرهم بالخيانة ، مما لم تحتمله نفوسهم « كفرسان » ، ورأوا أن يقدموا معه دون أن يحسبوا حساباً لما يترتب على هذا الإقدام من تضحية ليس لها ما يبررها ، والواقع أنهم ملومون في هذا الإقدام الغبى ، ولا تقل تبعتهم في العمل على مصرع كونت دارتوا عن تبعته هو في تحمل دمه ، رغم أن الأخ جيل — مقدم

(1) Grousset : Hist. des Croisades, t. III, p. 461.

(2) Lane-Poole : Hist. of Egypt, p. 235.

الداوية — لم يفته النص على ذلك فقال له « يا سيدي ، لا يعرف الخوف سبيله إلىَّ أو إلى أى واحد من إخواني ، ولن نبقى في المؤخرة ، بل سنذهب معك ، ولكن أحب أن تعرف تماما أننا فشك في أننا سنرجع أبداً » ، وهذا قول رجل مدرك لحقائق الأمور إدراكاً صحيحاً ، ومصيب في تقديره لخواتيمها .

وغير بعيد أن يكون السكون قد عزَّ عليه أن يقال إنه تراجع أمام إلحاح الداوية وأبى إلا أن يتقدم دون استعداد :
أشد على السكتية لا أبالي أحتفى كان فيها أم سواها

وأبى إلا أن يزحف على اليزك المملوكى وفيه جماعات البحرية الصالحية ، وكانوا قد نصبوا آلات الحرب والقتال ، وأقاموا الأبراج المتحركة عند ناحية تعرف بجديلة ، ويتسامل الأستاذ جروسية : « أليس من الممكن أن يكون الدافع له على ركوب هذا المركب الوعر هو ما يكون قد تردَّد في المعسكر المصرى من خبر فروسيته ؟ » ، وهو تساؤل يحمل في طياته كل معانى الطعن ، وينطوى على السخرية به ، ومهما يكن الأمر فإن كونت دارتو قد تقدم نحو المصريين في جديلة ، ولم يكن عدد الذين معه من رجاله ومن الداوية — وفيهم جماعة من الإنجليز — يعدو ألفاً وأربعمائة فارس على حدِّ تقرير المقرئى^(١) ، على حين أن بعض المراجع الأخرى

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

تقدّر عدد القتلى من الصليبيين وحدهم بألف وخمسمائة ، ما بين فارس وراجل^(١) .

انزعج المصريون في المنصورة من هذا الهجوم المفاجيء ، ووردت البطاقة إلى القاهرة تحمل هذا النبأ المزعج الذى لو حاول مراسل صحيفة فى القرن العشرين أن يبرق به إلى صحيفته لما استطاع أن يختزلها أكثر مما جاء فى بطاقة القرن الثالث عشر من قول القائد « هاجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد^(٢) » ، ويغلق ابن واصل — معاصر هذه الأحداث — على ذلك بقوله « انزعجنا وغلب على الظنون بوار الإسلام ، على أنه كان من سعادة المسلمين تفرّق الإفرنج فى الأزقة » .

تابعت القوات الصليبية حركة تقدمها نحو « جديلة » ، ولم يقدر الكونت دارتوا مقدار استعداد الجيش المصرى فى هذه البقعة ، على أن الأسى الذى شمل النفوس حزنا لمصرع الأمير نجر الدين لم يكن ليقتعد بالعسكر والماليك البحرية عن حمل اللواء فى جماد « السكفار » ، والماليك أهل حرب وقتال وفروسية ، ولدوا على الجياد ، ونشأوا بين قعقعة السيوف وحميم الخيل ودوى الطبول

(١) راجع كتاب الروضتين لأبى شامة ، ص ١٩٥ ، وكذلك Lane-Poole

Op., Cit. p. 235., Oman : Op. Cit. Loc. Cit. ابن واصل : مفرج

الكروب ، ص ٣٦٦ ب .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ب ، ١٣٦٧ .

ونفير القتال ، وإذا لم يجدوا عدوآ يقاتلونه لم يعجزوا عن تهيئة
المناسبة بمبارزة بعضهم لبعض .

ولما تداعى القوم واشتبك القنا

ودارت ، كما تهوى ، على قطبها الحربُ

وزمَّين للناس الفرار من الردى

وماجت صدور الخيل والتهب الضرب

صبرنا لها حتى تجلَّت سماؤها

وإننا لصبر إن ألمَّ بنا الخطب

وقد ذكر أحد المؤرخين^(١) بصدد هذا الأمر قصة عجيبة

حدثت أيام صلاح الدين الأيوبي ، وهى تدل على ما انطوا عليه
من الفروسية ، ذلك « أنهم قالوا إلى كم نقاتل الكبار ، وليس
للمصغار حظ ، نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم ، فأخرج صبيان
من البلد إلى صبيين من الأفرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد
الصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين فاخطفه ، وضرب به الأرض ،
وقبضه أسيراً ، فاشتراه بعض الأفرنج بدينارين وقالوا هو
أسيرك حقاً ، فأخذ الدينارين وأطلقه ، :

وكل رفيقى كل رحل — وإن هما

تعاطى القنا قوماهما — أخوان

بل إن تاريخهم السياسى يكاد يكون سلسلة من القتال فيما بينهم ،

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٢ .

وإذن فلا عجب إذا وجدوا في تهوُّر كونت دارتوا فرصة طيبة لإشباع ميولهم الحربية ، ولعلمهم رحبوا بها أكثر من ترحيب الكونت ذاته ، وهياً الوقت الفرصة المناسبة لظهور قائد من بينهم يحل محل الأمير نجر الدين ، ذلك هو بيبرس البندقدارى الذى حمل راية الجهاد بعد أن خرب ابن شيخ الشيوخ جريحا .

حقيقة « أنه اشتد الخطب بعد مقتل ابن شيخ الشيوخ » ، ولكن مما لبثت الطائفة التركية من الجامدارية والبحرية الصالحية أن عادت سيرتها ، وحملت على الفرنجة ^(١) الذين تجمعوا — فارسهم وراجلهم — أمام القصر السلطاني يريدون اقتحامه .

والواقع أن مصير مصر بأجمعها كان مقدرًا أن يتقرر فى هذه الموقعة ، فلو عُدَّ النصر للصليبيين وتميَّأت لهم الغلبة على القوات المصرية لوجدوا الطريق ميسراً أمامهم إلى قصبة البلاد ومصر ، ولضاعت قوة الشرق التى كانت مصر ولا تزال سرها وبيدها لوأوها ، إذ لا تعدو المعارضة حينذاك أن تكون مناوشات لا يعتد بها ولا تؤثر فى استقرار الحكم للفرنسيين بمصر ، ومعنى ذلك كله أن انتصار الدخيل الغربى يحيل السكناة إلى إيالة صليبية فرنسية ، وإذن يتغير وجه التاريخ فى منطقة الشرق العربى بأكمله ، لما يتبع ذلك النصر الصليبي من استيلاء الأجانب على فلسطين وبلاد الشام بأجمعها ، ثم الإغارة على أطراف بلاد العراق الشمالية وعلى العراق ذاته والتوغل فى

لقد أريد هنا .

قلب الجزيرة ، ولم يكن في قدرة بغداد يومذاك الصمود أمام أيّة
قوة خارجية ، والدليل على ذلك سرعة انهيار الخلافة العباسية على
يد المغول بعد سنوات قلائل من هذه الأحداث .

ولقد أدرك المماليك البحريةية — وفيهم بيبرس البندقدارى —
أن المسألة مسألة حياة أو موت لأحد الفريقين المتحاربين ، لذلك
كان من الضروري على بيبرس ومن معه أن يضحّوا بكل شيء في
سبيل الاحتفاظ بكل شيء ، وليس هناك أمر وسط بين الحياة
والموت ، أو بين الكل والعدم .

لذلك اشتد المماليك البحريةية والجمهورية في دفع الصليبيين ،
واستطاعوا بعد لآي أن يدفعوهم عن باب القصر السلطاني ، وأخذت
الفرنسيين العزة بالإثم ، فطمعوا أن يتيسروا دخول القصر والاستيلاء
على الطريق المؤدى إلى مصر والقاهرة ، ومن ثم تنطلق قواتهم خلال
الدلتا دون أن تجد مقاومة ، ولم يفت هذا الأمر جماعة المماليك
الذين حملوا على العدو حملة صدق في سبيل مصر ، وما كان الفرنسيون
بمعجزين في الأرض ، وسيدر كون أن مأواهم الصحارى والقفار
وبطون النصور ، فقد ولوا مدبرين ، وإذ ذاك أخذتهم السيوف والدبابيس
المصرية من كل جانب ، ووقع القتل فيهم ، وأصاب المصريون منهم
مقتلة عظيمة ، وأخذتهم الرجفة فأصبحوا في شوارع البلد محصورين
مقتولين ، يسبحون في بحر من الدماء المطلولة التي أغراهم طمعهم في
الفتح على أهرابها .

وكم ذنب مولده دلال وكم ذنب مولده اقتراب
وجرم جرّه سفهاء قوم وحل بغير جرمه العذاب
على أن الذى يعيننا عناية خاصة هو موقف الشعب نفسه فى
هذه المعركة ، فقد وصل الفرنسيون فى هجومهم على المنصورة إلى
قلب المدينة ، بدليل وقوفهم أمام القصر السلطانى ، على أن هناك
مسألة تستحق البحث هى التوفيق بين إيراد الحوادث عند المؤرخين
المسلمين وعند جوانشيل ، ذلك أن المؤرخ الصليبي^(١) يشير إلى أن
جماعته أخذت فى مطاردة اليزك المصرى فى شوارع المدينة وحاراتها
فى بداية الأمر ، فلما شرعوا فى العودة أخذ الشعب فى مقاتلتهم بكل
ما تصل إليه يده ، على حين أننا لا نجد فى المصادر العربية التى بين
أيدينا ما يشير إلى فرار الجيش المملوكى أمام الفرسان الصليبيين ،
بل كل الذى حدث هو شىء من الاضطراب للهجوم الفرنسى المباغت .
وليس من المستبعد أن يكون الصليبيون قد وجدوا الطريق
ميسرا أمامهم عقب اجتيازهم مخاضة البحر الصغير مباشرة ، لاسيما
وأنهم قد أصابوا النصر فى بداية الأمر عقب مباغتتهم الجند المملوكى ،
وأخذهم إياه على غرة ، وبعد قتلهم الأمير نخر الدين . وفى أثناء هذه
المدة التى انقضت بين مصرع ابن شيخ الشيوخ وبين مجيء بيبرس
البندقدارى برجاله ، كان الفرنسيون قد اقتحموا الطرق ووصلوا إلى
باب القصر السلطانى ، وحينذاك فاجأهم المماليك البحرية وحصروهم

(1) Davis : The Invasion of Egypt, p. 38.

فى شوارع المنصورة الضيقة ، وأخذ الأهالى يرمونهم من نوافذ
المنازل وأسطحها بكل ما نصل إليه أيديهم من الأمتعة المنزلية والحجارة ،
وكان الفضل فى هذه الحركة للعامة التى يهملها التاريخ إهمالا تاما ،
مع أنها هى التى ضمنّت النصر على الفرنسيين فى ذلك اليوم الخالد ،
وجنّبت مصر والشرق العربى بأجمعه ويلات الاستعمار الفرنسى
منذ سبعة قرون . وهكذا سدّت السبل أمام هذا الفريق من
الصلبيين ، وتخطّطهم الموت من كل جانب ، فأصبحوا لا يعرفون
من أين يتقونه : أمن فوقهم ؟ أم من أمامهم ؟ أو من خلفهم ؟ ،
فأنّى وجّهوا وجوههم فثمّ الموت والقتل والتخطف ،
وهلكوا عن آخرهم غير نفر لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة
تهيات لهم أسباب الحياة ، ليقتصدوا على بقية رجال الجيش مأساة
المنصورة أو حطين الثانية التى ألمّت بمقدّمة الجحافل الصليبية ،
وليحمل أحدهم ويعرف بهمبرت دى بوجو^(١) Imbert de Beaujou
إلى الملك نبأ موت أخيه روبرت كونت دارتوا ، دون أن يحنى من
هذه التضحية التى أقدم عليها ما يفيد الجيش الفرنسى ، أو يسجل له
نفر آما ، بل لقد أضاع هيئته ، وهيباً للبهاليك الفرصة الطيبة لضم
صفوفهم ولم شعّتهم والاستعداد لإخراج الفرنسيين بأجمعهم من البلاد
عن قريب ، وهكذا كانت المنصورة مشوى أولئك الفرسان من
الداوية ورجال السكونت دارتوا الذى يحمل فى عنقه الدماء المطولة

(1) Davis : The Invasion of Egypt. P. 38.

يومذاك، والتي انسكبت في شوارع المدينة المصرية ، وبذا انطوى الفصل الأول من كتاب الحرب الصليبية السابعة على شر ما تنتهى إليه الأمور المنكودة الطالع من وجهة النظر الفرنسية ، وطويت صفحة ختمت بالدماء دون أن تبهر العقول ، أو تحمل التاريخ على الإعجاب ببسالة ذلك السكونت الأرعن ، ووقف التساريخ موقف الاعتبار والإجلال من الجمهور المصرى وعامة أهل البلاد الذين قلَّ أن نجد لهم ولأمثالهم سطوراً في كتاب المجد ، على الرغم من أن كل كلمة من كلماته قد كتبت بدمائهم .

١٠

لقد رأينا كيف دفع التهور كونت دارتوا لإهراق الدماء دون أن يحنى أية ثمرة يعتز بها جيش أخيه ، بل أضاع فيها على الحملة ما يقرب من ألف وخمسمائة فارس ونيل وبارون ، ، رووا ثرى المنصورة بدمائهم ، وهلكوا شر هلكة ، وأدت هذه الحركة من جانب السكونت إلى أن يتحرك الشعب بطبقاته المختلفة ، ويساهم في القتال حسب ما تيسر له .

على أن خبر هزيمة الداوية وخاتمة السكونت المؤلمة لم تبلغ سمع الملك لويس إلا بعد حين ، وبينما المعركة دائرة الرحى في حارات المنصورة كان لويس يبذل جهده ويشرف على عبور مخاضة النهر ، ولم يكن يدور بخله بحال من الأحوال أن أخاه أو أحداً من الداوية قد خرج عما أمر بتنفيذه ، وما كاد الملك لويس يعبر البحر الصغير

حتى وجد كتيبة من المماليك البحرية تشن هجوما عليه ، بعد أن تم لها الإجهاز على مقدمته التي قتلت بأجمعها تقريبا ، وأسقط في يد الملك لويس الذي أخذته الدهشة من كيفية وصول هؤلاء الأعداء دون أن تصدهم مقدمة الجيش وأخوه ، أو دون أن يشاهد لهم أى أثر .

أفهل تراهم انسحبوا ؟

أم تراهم قتلوا ؟

أم تراها حيلة منهم ليوقعوا جماعة المماليك البحرية والجمدارية بين شقي الرحي الفرنسية ؟

لعل هذه الأمثلة وأمثالها خطرت على بال الملك القديس وهو في مكانه يشاهد عدوه يعبر البحر بمعداته كاملة ، ولا يرى أثرا لجماعة الداوية وفريق كونت دارتوا الذين كانوا أول الصليبيين اقتحاما لتلك الناحية ، وأدرك لويس أنه مهما تكن حقيقة الأمر التي لا بد وأن تتكشف سريعا فإن واقع الأحوال يتطلب منه أن يعمل ، وأن يعمل سريعا لرد عدوان المماليك ، ثم ينظر بعد ذلك في موقف الصليبيين الذين انفصلوا عنه ، لكن كيف يتأتى له القيام بحركة تصد العدو ، وهو فرد على رأس أفراد قلائل ، على حين أن المشاة والرماة الفرنسيين لا زالوا في الخلف وعلى مسافة قريبة منه ؟ ولذلك لم يجد الملك بدأمن محاولة الارتداد ، ليكون على كشب

من جماعته ، وليحمي ظهره ومؤخرة جيشه من الخلف ، فليس من الشجاعة أن تخرج للقاء خصمك وأنت غير مستعد ، فما بالك بلويس في هذا الموقف الذي تكشفته له فيه حقيقة ما جرى لمقدمة جيشه ، وإن لم يخطر بباله قط أن الجماعة قد فنيت عن آخرها تقريباً .

مالبت الرماة والمشاة أن خاضوا النهر سباحة ، وإذ ذاك اشتدت عزيمه الملك ، الذي يبدو لنا — ونحن نطالع موقفه — ما كان عليه من رباطة الجأش وعدم الاضطراب الذي يصاحب الكثيرين إذا ما سدت أمامهم السبل فيزيدونها تعقيداً على تعقيد ، حتى ليؤدوا بأنفسهم في النهاية إلى التهاكة ، ويسرعوا بها إليها إسراعاً .

أمر الملك الجيش بالتقدم والاشتباك مع المماليك وعدم الاكتفاء برمي السهام والنشاب من بعيد ، وأدرك أن التبحر السيوف خير ألف مرة وأجدى من الرمي عن الأقواس ، وكان الحق فيما ذهب إليه ، فقد استطاع الصليبيون صد المماليك ، وإذا كان صباح الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠م قد شاهد هزيمة مقدمة الفرانسيين ومصرع الكونت دارتوا ، فإن مساهمه قد أقبل ليرى كيفهم وقد رجحت ، وليس معنى رجحانها انهزام المماليك وفشل ريحهم ، ولكن معناه هو صدمهم عن أن يوردوا بقية جيش الفرنجة المورد الذي استقى منه إخوانهم في الصباح الباكر ، ولا شك أن الفضل في حفظ بقية الجيش راجع

إلى الملك ، فقد توقفت سلامة جيش الفرنجة على الملك وحده دون غيره ، ذلك أن دوره كقائد اختلط في هذه اللحظة بدوره كجندي ، وكان أمره عجيبا أشد العجب ^(١) ، وقد استمرت هذه المعركة من الصباح حتى الثالثة بعد الظهر ^(٢) والجيشان في قتال مستمر : فالיום في غسق العجاجة ليلة والكر يخرق سيجفها الممدودا وعلى الصفاح من الكفاح وصدقه روع أحال بياضها توريدا ولم يعدم الملك الاستشارة في ذلك الوقت ، فيروى كاتب سيرته ما شاهده بعيني رأسه حيث كان واقفا إلى جانبه ، فيقول : « بينما كنا على هذه الحال ، إذ أقبل جون فاليري Valéry ، وقال إنه يشير على الملك بأن ينتقل إلى اليمين إلى ناحية مجرى [النهر الصغير] ليضمن مساعدة دوق برجنديا وبقية القائمين بحراسة المعسكر ، فأمر الملك باستدعاء فرسان مجلس شورته ، فأقبلوا ، وسألهم أن يلقوا إليه بأرائهم فقالوا إن الخير كل الخير في اتباع ما أشار به جون لورد فاليري ، وحينذاك أمر الملك بتحويل راية سنت دنيس ، والتحرك يمينا شطر النهر ، وعند ما تحرك جيشه ترددت مرة ثانية أصوات الطبول والصنوج والأبواق تدوى عالية ، فأدرك المالك مقصد الملك لويس من هذه الحركة المباغتة ، وحاولوا الهجوم على مؤخرة جيشه ، واستمر

(1) Grousset : Hist. des Croisades, p. 468.

(2) Grousset : Op. Cit. Loc. Cit.

(3) Joinville : Chronicles, p. 192—193.

القتل في الفريقين، وجاءت الفرنسيين النجيدات يتشرى بعضها في إثر بعض، إذ اغتتم الباقون في المعسكر فرصة انشغال المماليك بمقاتلة الجيش وعبروا المخاضة وانضموا إلى إخوانهم، فشالت كفة اليك المصرى بطبيعة الحال، مما حمل المماليك على الارتداد إلى المنصورة، وحينذاك فقط علم الملك لويس بمصير أخيه كونت دارتوا، فظل فترة يغالب الدمع في المحاجر، والقلب أن يذوب، ولسكن من ذا الذي يمنع جمر الغضى عن الإحراق، وأخيرا لم يملك نفسه من الاستعبار، وجرت على خديه دمعتان :

دمعة بطل على بطل !

ودمعة أخ على أخ !

دمعتان هما كل ما استطاع لويس التاسع أن يفعله في هذا الموقف، وإن سجلهما التاريخ، واليوم بعد سبعة قرون من ذلك الحادث تذكران وتجدان لها مجالا في هذا الكتاب العربى .

دمعتان سفحتا والشمس جانحة إلى المغرب، بعد أن غابت شمس دارتوا إلى غير عودة .

ألان يوم الفراق قسوته	حتى جرى دمه وما شعرا
لم يبك شوقا لسكن بكي جزعا	لهول يوم الفراق إذ حضرا
في مشهد، لو أطاق شاهده	فيه استناراً لوجهه ستره

على أن هذا الحادث لم يكن ليعيق لويس عن متابعة الاستعداد لغزو البلاد ، فأخذ في تقوية المعسكر الصليبي الواقع جنوب البحر الصغير ، وما انقضى على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى تجددت غزوة المماليك ، بعد أن انضاف إليهم الكثيرون من البدو الذين طمعوا في الأسلاب الفرنسية ، ومن ثم تجددت حركات القتال ، وكانت ثم امدادات صليبية جديدة من فرنجية الشام وقبرص قد ترادف إقبالها وانضمامها إلى صفوف لويس التاسع ، مما استحال معه على المماليك أن تكون لهم الكفة الراجحة في ذلك اليوم ، واضطروا إلى الارتداد مرة أخرى إلى المنصورة .

على أن هذا الارتداد لم يكن هزيمة خالصة للمماليك ، أو نصرا تاما للفرنسيين ، وإذا كانت العبرة بالخواتيم فإننا نستطيع أن نقول إن وقعة المنصورة — وإن حملت في نهاية اليوم الأول الهزيمة — كانت نصراً للصليبيين ، لما ترتب عليها من عدم استطاعة الصليبيين التقدم شطر الجنوب ، وصدق المقرئى^(١) حين قال : إن هذه الموقعة ابتداء النصر على الفرنجة .

على أن هذه الخاتمة السريعة التي يهلل لها كتاب الفرنجة^(٢) كانت أولى بأن تعد في باب المآسى والفجائع ، وليس معنى النصر أن يدفع

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥١ .

(٢) Joinville : Chronicles, p. 242. (٢)

الصلبيون المالك عن معسكرهم ويردوهم إلى المنصورة ، والكن
الواجب كان يقتضى أن ينظر أولئك الكتاب ومن يأخذ عنهم
إلى مقدار ما استطاع الفرنسيون تحقيقه من أهداف غرضهم
الأصلى، الذى يرمى إلى الوصول إلى عاصمة البلاد واحتلالها ، وإلى
إزالة الدولة المملوكية ، وإقامة حكومة فرنسية صليبية ، فهل
استطاعوا أن يحققوا ذلك كله ؟ بل هل استطاعوا أن يحققوا
شيئا من هذا ؟ الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج إلى تدقيق
كبير ، لأن واقع الأمور صريح فى أنهم لم يتقدموا ، خطوة
واحدة إلى الجنوب ، ولم يستطيعوا محو عار هزيمة الداوية والثأر
لمصرع كونت دارتوا فى المنصورة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستيلاء
على المدينة ، لسكنهم فازوا من غنيمة الحرب كلها بالوقوف حيث هم ،
ليس لهم متقدم عن مكانهم ، بعد أن تكبدوا من الخسائر فى الرجال
والذخائر والآلات شيئا كثيرا يشهد به مؤرخوهم ، ولا ينكر
أن المعسكر المملوكى تكبد أمثال هذه الخسائر هو الآخر ، إنما
تهمن عليه لقدرته على تعويضها ، فالبلاد بلاده ، وأهله مستعدون
فى أية لحظة لتعويض هذه الخسائر إذا كانت ثمة ضرورة تدعو لذلك ،
وهل هناك ما هو أفسس بمستقبلهم وبوضعهم السياسى والاجتماعى من
أن تصبح مصر إمارة صليبية ؟ ، لذلك كان الأهل على استعداد
دائما لتعويض جيشهم كل ما يخسره ، على حين أن تعويضها عند

الجانب الصليبي يتطلب وصول إمدادات جديدة من فرنسا أو قبرص أو من أمراء الفرنجة بالشام ، ولا يخلو الأمر حينذاك من التعرض للخطر في البر أو في البحر .

توالت الضربات على الصليبيين أخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فكان أول عمل عملوه هو الارتداد إلى دمياط على وجه السرعة ، وبقوا مرابطين عند البحر الصغير دون أية حركة مدة سبعة أسابيع ، وهي فترة ليست بالقصيرة ، وكان واجب لويس كقائد عام يقتضيه تقدير العامل الزمني ودخله في تقرير مصير القتال ، لا سيما وأنه لم يصله في هذه الأسابيع شيء من الإمدادات أو الذخيرة ، وطبيعي أن تقل الأقوات والمؤونة عنده دون أن يرد إليه شيء من الخارج ، ودون أن يستطيع القيام بأية حملة في الداخل على المدن المجاورة لضمان الذخيرة ، فكانت ما لويس فرض على نفسه وعلى من معه أسراً طويل المدى ليس له ما يبرره ، لذلك كلما طال الوقت كلما كان ذلك في صالح المماليك الذين لم يفهم تقدير ذلك العامل الهام ، فاستغلوا هذه الأسابيع السبعة بما فيه صلاح أحوالهم وإيقاع الضرر بالجانب الصليبي ، وأخذوا في بناء السفن وجمع المجاهدين والذخيرة ، وكل هذه — من غير شك — عوامل تدعو إلى ترجيح كفة المماليك على الفرنسيين في محاربتهم إياهم .

على أن المصريين عمدوا قبل كل شيء إلى صنع المراكب ، ثم

« حملوها وهي مفككة على الجمال إلى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة ، ، ومعنى هذا أنهم أرادوا القيام بعمل حاسم في تقرير مصير الحرب ، كما أنهم أرادوا القيام بقطع السبيل على الصليبيين ، حتى لا يستطيعوا تموين أنفسهم ، وذلك أن وجود المراكب المصرية في النيل وفروعه وشحنها بالمقاتلين يعرقل أية حركة يقصد بها تموين معسكر العدو ، ولقد نجحوا في ذلك إلى حد يمكن معه القول بأن الفضل فيما ألم بالفرنسيين من الأحوال من الآن فصاعدا إنما يرجع قبل كل شيء إلى أثر هذه المراكب المباشر ، وإلى قدرتها على منع الميرة من الوصول إلى دمياط .

وكان أول آثارها المادية الملموسة أن قدم أسطول من دمياط يحمل المؤونة والذخيرة إلى المعسكر الصليبي عند البحر الصغير ، وكان في قدرة هذا الأسطول أن يصل سليما ، وأن تشتد به سواعد الفرنسيين ، لولا أن تراعى خبره إلى المراكب المصرية ، فكفنت له في بعض الطريق ، حتى إذا شارفها باغتته ونشب القتال بين الفريقين ، وحينذاك أقبل الأسطول المصري من ناحية المنصورة ، فتمت الغلبة للمصريين ، واستطاعوا الاستيلاء على عدد كبير من المراكب يقدر باثنين وخمسين مركبا ، كما فقد الفرنجة قرابة ألف رجل منهم ما بين قتل وأسير ، وترتب على هذا النصر أن وقع الغلاء عند الفرنج ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا

يقدرّون على الذهاب ، واستتضرى المسلمون عليهم ، وطمعوا فيهم^(١) ، ويلخص قاضى حماة^(٢) ، صاحب التاريخ الكبير — مفرج الكروب — هذا الحادث ، بأنه لما استقر الفرنج بمنزلهم كانت تأتيمهم الميرة من دمياط فى بحر النيل ، فعهد المصريون إلى مراكب شحنوها بالمقاتلة ، وحملوها على الجمال إلى بحر المحلّة ، وألقوها فيه .. فلما حادرت مراكب الفرنج وهى مقلعة من دمياط فى بحر المحلّة ، وقع القتال بين الفريقين ، وجاءت أساطيل المصريين من جهة المنصورة متحدّرة إليهم ، والتقى الأسطول والمراكب التى كانت ممكنة فأحاطوا بالفرنج فأخذوهم ومراكبهم أخذ اليد ... وأسر من كان فيها ، وأخذ جميع ما فيها من الميرة ... وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج ، ووهنوا وهنأ عظيما ، واشتد عندهم الغلاء ، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب .

وأخطر النتائج التى ترتبت على ذلك هى النقصان البين فى الأقوات عند الصليبيين وفشو الجماعة^(٣) بينهم ، وكان لا بد لهذه الكوارث أن تدع الكثيرين من المسؤولين فى الجهة الفرنسية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٨ ب ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٨ ب .

(٣) Manus. de Rothelin, p. 592.

إلى التفكير في حل يخرجهم من أزمته التي تردوا فيها ، فكان من جراء ذلك تفكير بعضهم في الرجوع إلى فرنسا ، أو الاتفاق مع سلطان مصر توارنشا حتى يمدهم بأساليب العيش .

وتتالت حركات المراكب المصرية التي أمر توارنشا بصنعها ، حتى إذا كان يوم عرفة ٦٤٧ هـ (= ١٦ مارس ١٢٥٠ م) التقت شواني المسلمين عند مسجد النصر بمراكب الصليبيين ، والتحم الأسطولان في معركة لم يكن القصد منها الفتح ، لكن الغرض الأساسي منها عند الفرنجة هو أن يجدوا الذخيرة ولو عن طريق الصلح ، وطبيعي أن هذا لا يتأتى لهم إلا إذا استطاعوا الانتصار على المالك في ذلك اليوم ، فلا مشاحة إذا كان القتال بين المصافين شديداً ، وعلى الرغم من استبدال الفرنجة في مضايقة المصريين إلا أن كفة الأوائل شالت ، إذ فقدوا في ذلك اليوم اثنين وثلاثين مركباً من بينها بضعة شواني^(١) ، مما كان له أكبر الأثر في إضعاف روحهم المعنوية ، هذا بالإضافة إلى ما نتج عن قلة الميرة من ضعف جسماني عام ، وانتشار الأمراض والأوبئة بينهم ، وكانت المجاعة في صفوف الصليبيين أكبر عامل على تشجيع المصريين على مداومة القتال وتقوية ذاتهم المعنوية ، كما أن ضرراً شديداً من الأوبئة والحملات

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٦٩ ، العيني : عقد الجمان ،

أثرت أثرها البارز في الفرنسيين ، فأخذ الموت يتخطّفهم وهم في معسكراتهم .

لم يخف على لويس ما تؤدي إليه هذه الأمور السيئة من نتائج وخيمة تهدد مستقبل الحملة ، ولعله أدرك يومذاك فشل خطته في الاستيلاء على مصر ، فقد رأى قبل كل شيء أن يفر بجنده إلى داخل مدينة دمياط ، فعمد إلى حرق ما عنده من الأخشاب حتى لا تقع في يد المصريين فينتفعون بها في صنع مراكب جديدة وأبراج جديدة ، يكون فيها القضاء على البقية الباقية من عسكره وباروناته وفرسان فرنسا (١) .

على أن الارتداد إلى دمياط لم يكن بالأمر اليسير ، وما كان للمصريين أن يدعوا الجيش يفر أمام أعينهم دون أن يتعقبوه وينالوا منه ، ولذلك لم يكن ثم مهرب للويس وجنده أثناء تقهقرهم إلى دمياط من قتال أهالي البلاد ، سواء تعرضوا لهم أم لم يتعرضوا ، ولذلك جمع عسكره في القسم الشمالي من البحر الصغير ، إذ رأى تلك الناحية واقية من هجوم مملوكي قد يشنه اليك المصري ، وإن لم يكن في ذلك اليوم ثم عاصم من تغلب المصريين ورجحان كفهم على العدو الذي حسب البلاد لقمة سائغة ، وما علم أن من دون ذلك خطر القتل . أخذت مقدمة الجيش في الانسحاب أمام هجمات المماليك المتزايدة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٩ ب .

وضغطهم المستمر ، وحمل لواء المقاومة الفرنسية قائد المؤخرة جوتييه
دى شاتيون Gauthier de Châtillon الذى أخذ يحاور المصريين
ويقائلهم هنا وهناك ، حتى يصرف نظرهم عن المقدمة وفيها الملك
لويس ذاته ؛ وكان جوتييه ومن معه يدركون تمام الإدراك ما عليه
الجيش الصليبي بأجمعه من الضعف من جراء الأمراض التى تفتك
برجاله فتكا ذريعا ، فكان الناجى من القتل بالسيف يتلقفه الوباء
فيهلك به ويصرعه ، ولذلك فمن الجدير أن نثبت موقف البطولة
الذى وقفه هذا القائد رغم إلحاح الأمراض عليه وعلى من معه ،
وصبره على هذا اللقاء السكريه ، والصبر مطية النصر فى مثل هذه
المواقف ، وما النصر إلا أن تسلم مقدمة الجيش ، وإلا أن يسلم الملك ،
وثبت جوتييه ومن معه وقد :

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم ولم يتغوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

* * *

وقد أسهب المقرئ فى وصف هذه المعركة ، فذكر أن الصليبيين
رحلوا بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط ، وانحدرت مراكبهم
فى البحر قبالتهم ، فتتبعهم المصريون بعد أن عبروا الماء الفاصل بينهم
وبينهم ، ثم أحاطوا بالمؤخرة التى فيها جوتييه ، وأعملوا فى رجالها

القتل والأسر ، وبينما كانت خسارة المصريين طفيفة جدا لاتعدو
مائة رجل ، خسر الصليبيون عشرة آلاف قتيل وأسروا منهم مائة
ألف ، وقد يكون في هذا العدد شيء كثير من المبالغة ، ولكن لا شك
في أن خسارة الفرنسيين عظيمة ، تربو أضعاف خسارة المصريين ،
وإذا كان بعضهم قد لقي حتفه بالسيوف والنشاب والسهام والدبابيس
والحجارة ، فلا ينبغي نسيان عامل آخر ، ونعني به تفشى الأوبئة (١)
بين الفرنجة ، ومع التجاوز مرة أخرى عن الأرقام في كلا الجانبين ،
إلا أنه لا مشاحة في أن هذه الواقعة كانت هزيمة قوية للجيش الفرنسي ،
أدرك معها ألا مقام له بمصر ، وأيقن لويس التاسع أن كل يوم يمر
عليه في أرض مصر إنما هو انتحار يُقَدِّم عليه ، دون أن يجنى منه
خيراً أو شرفاً له ولبلاده .

ولكن كيف يستطيع الإبقاء على جيشه والخروج من هذا
المأزق الحرج ؟

لم يكن هناك سوى سبيل واحد ، ذلك هو طلب الأمان
والرجوع عن البلاد بأي ثمن ، على أن يكون فيه حفظ شرفه
العسكري وكرامته الملكية ، وإبقاء على البقية الباقية من العسكر
الفرنسي ، ولذلك رأى الاتصال بالملك المعظم تورنشاخ للاتفاق

(١) القرينى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

على شروط المودعة ^(١) ، وأظهر استعدادَه لرد دمياط ، لقاء أخذه بيت المقدس .

لذلك عقد الملك لويس مجلسا للاستشارة مؤلفا من أقرب الناس إليه وأدناهم رحما به وأشدهم إخلاصا له ، فقرروا وجوب العمل على إنقاذه برأ أو بجرأ ، ولكنه أبى إلا أن يشارك جنده مصيره إن حياة أو موتاً ، وهو موقف كريم ، يذكرنا بموقف بلدوين الثالث حين نصحه رجاله أن يتخلى عن محاربة دمشق ونور الدين إبقاء على نفسه فرفض ^(٢) ، فلما رأى مشاوروه إصراره الشديد ، وأدركوا أنهم غير مستطيعين صرفه عما عقد عليه العزم ، راحوا يتدبرون طريقا آخر يحفظ في الوقت ذاته ملكهم سليما .

تداول المجتمعون الأمر وقلبوه على وجوهه ، فقرروا الرجوع بأكملهم إلى دمياط ، وأن يجازفوا بحازفة عظيمة فيبعثون بالمرضى بجرأ أمامهم ، وشرعوا في تنفيذ تلك الخطة يوم ٥ أبريل ١٢٥٠ م ، على أن المالك ما لبثوا أن كروا عليهم كرّة عنيفة ، مما حمل لويس على الاستبسال رغم مرضه الشديد استبسالا جعل المالك أنفسم أول المعجبين به والمكبرين له .

(١) Mans. de Rothelin, p. 616—617. (١)

(٢) حبشي : نور الدين والصليبيون ، الفصل الثاني .

على أن الملك لم يستطع مقاومة المرض الذى أرغمه على مفارقة مكانه من القيادة وألزمه الفراش ، حيث ذهب هو وعدة من أكابر قومه إلى « تل منية أبى عبد الله » القريبة من « شرمساح » ، واعتصم بييت امرأة من ضواحي باريس ، وحينذاك وفد على هذا البيت مملوك من قبل الجيش المصرى بقصد عقد الهدنة ، فأدخل على الملك ، وبينما هما يتجادلان إذا بصيحة تدوى فى المعسكر الصليبي قرّرت مصير الجند الفرنسيين بأجمعهم ، ووضعت حداً للحادثة الجارية بين الملك لويس وبين رسول المماليك ، تلك هى صيحة جنديّ ليس فى العير ولا فى النفير يهتف بالجميع : « أيها السادة الفرسان ، استسلموا جميعاً نزولاً على أوامر الملك ، ولا تكونوا سبباً فى ذبحه بيد العدو »^(١) فأمن المعسكر الصليبي بأجمعه بهذه العبارة ، ولعل الأوضاع المؤلمة التى كانت ملية بالجيش الفرنسى يومذاك هى التى جعلته يقبل هذه العبارة دون احتجاج ، ومن ثم وضعوا السلاح وأسلموا أنفسهم للمماليك ، بما شدّد عضد المفاوض المصرى ، ورأى أن يتشدد فى الطلب ، وأن يعتبر الملك لويس أسيره . ولندع جوانقىل^(٢) يقص علينا هذا الفصل الختامى كما رواه له لويس

(1) Joinville : Memoirs, loc. Cit.

(2) Joinville : Memoirs, p. 212.

التاسع نفسه حيث قال « جاء لورد فيليب دى مونتفورت إلى الملك وقال له إنه رأى الأمير الذى كان يتناقش وإياه بشأن المعاهدة ، فإن كان الملك يحس بالقوة جاء به إليه وجدّد المفاوضة ، نظرا لرغبة المسلمين فيها ، فتوسل إليه الملك أن يذهب لساعته لمقابلته ، ومن ثم ذهب لورد فيليب إلى الأمير المسلم الذى خلع عمامته وخاتمه من أصبعه دليلا على احترامه للعهد ، وفى هذه الأثناء حدثت نكبة لرجالنا ، ذلك أن جنديا خائنا اسمه «مارسيل» أخذ يصيح فى رجالنا « ألقوا السلاح أيها الفرنسيان ! » فظن الجميع أن هذه هى أوامر الملك ، فاستجابوا لها وسلبوا المسلمين سلاحهم . فلما رأى الأمير [المملوكى] أن المسلمين قد أخذوا رجالنا أسرى قال للورد فيليب « إنه ليس من المناسب أن يمنح رجالنا هدنة وهو يراهم أسرى لديه » ، وقد أدت هذه الخيانة بين صفوف المعسكر الصليبي إلى سرعة تقرير مصير الحركة الفرنسية ، فطلب المماليك من لويس أن يتنازل لهم نهائيا عن القدس ، ولكنه أنكر على نفسه قدرة التصرف فيها ، إذ هى تابعة نظريا للإمبراطور فردريك الثانى ، وأخيرا استقر الأمان على أن يتسلم المصريون دمياط ، وأن يدفع الملك فدية تبلغ ثمانمائة ألف دينار صورية^(١) ، فلما رضى الطرفان بذلك الاتفاق

(1) Lane-Poole : Hist of Egypt, p. 234.

اقتيد الملك أسيرا إلى دار القاضي نحر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء ، وعهد إلى الطواشى صبيح — وكان مقربا من تورانشاه — بحفظه والعناية به وبراحته ، وشهدت هذه الدار التي لاتزال آثارها قائمة إلى اليوم ، والتي عنيت بها مصلحة الآثار المصرية — أقول شهدت من الأسيرة المالكة الفرنسية كونت أنجو وكونت بواتو (١) .

ويلاحظ أن جماعة من الكتّاب الغربيين يحاولون تصوير معاملة الماليك للويس في أسره معاملة قائمة الألوان ، وأنهم لم يراعوا مكائنه بل اشتدوا عليه ، على حين أن كتاب تورانشاه — وسنذكره حالا — صريح في حسن معاملة المصريين للقديس لويس ، ولم يكن يضير تورانشاه أن ينص على القسوة في معاملته إياه ، لاسيما وهو في عصر قلّ أن يحترم فيه إلا من عرف عنه إثارة العظيم للشدة والعنف ، واستعماله إياهما مع الجميع .

ولقد سرى هذا النبأ في البلاد فاهتزت له بالبشرى ، وكانت فرحة الملك المعظم أجل من أن تصور ، فقد رحلّ إلى فارسكور ، وأمر فضرب بها الدهليز السلطاني ، وبعث بالبشرى إلى الشام ، فكتب بخط يده كتابا إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين بن يغمور جام

فيه (١) ... الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة بما منَّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأولاد ، فنودوا لا تياسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة — عم الله على الإسلام بركتها — فتحننا الخزان ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقنا لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومكان سحق . فلما كانت ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأمواهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيين إلى المنية ، وطلب الأمان فأمنَّ الله وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته ، ، والكتاب صريح فى الدلالة على المعاملة التى عومل بها

(١) لم يرد نص هذا الكتاب فى أبى شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ —

١٩٧ ، ولا فى ابن واصل ، ولكنه ورد فى العيني : عقد الجمان ، ص ٢١١ — ٢١٢ ،

والمقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

لويس التاسع فى أسرته بدار ابن لقمان ، ولو كان غير ذلك لما وجد تورانشاه مانعا من الإشارة ، كذلك بعث إلى الأمير جمال الدين معطف الملك ، فلبسه الأمير فى مجلس حضره أبو شامة صاحب كتاب الروضتين ^(١) ، وفى وصف هذا المعطف والموقف يقول الشيخ نجم الدين بن اسرائيل :

إن غفارة الفرنس التى جا مت حياءً لسيد الأمراء
بمياض القرطاس لونا ولكن صبغتها سيوفنا بالدماء ^(٢)
وكتب الأمير جمال الدين إلى مولاه تورانشاه كتابا يشكر له فيه عطيته إياه ، استهله بقوله :
أسيّد أملاك الزمان بأسرهم تنجّزت من نصر الإله وعيده
فلا زال مولانا يسيح حى العدى ويلبس أسلاب الملوك عبيده ^(٣)

* * *

اطمأنت خواطر الممالك إلى الوضع الحربى الجديد بعد أن قبل الملك لويس دفع الفدية وتسليمهم دميّاط ، إذ أن ذلك ينطوى على الفشل المطلق لأهداف الحملة الصليبية السابعة ، غير أنه جرى فى

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ ، الذيل على الروضتين ،

ص ١٨٤ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٧ ، المفريزى : المواعظ والاعتبار ،

ج ١ ، ص ٢٢٢ الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .

أثناء تسليم دمياط حدث جد خطير في تاريخ الدولة الأيوبية ، وهو حدث ملطخ بالدماء ، أنهى الدولة بعد أن ظلت في دست الحكم — منذ تولى صلاح الدين شئونها — مدة تقرب من الثمانين عاما ، أما هذا الحادث فهو مقتل تورانشاه^(١) .

ذلك أن الملك المعظم كان شابا أهورج أرعن ، فيه اندفاع وعدم ضبط ، تثيره الكلمة فلا يستطيع امتلاك زمام نفسه ، وقد أساء السيرة مع جميع رجال الدولة ، فلم يجد من أحدهم عظما عليه في محنته أو حين أخذ المتآمرين في التآمر ضده ، وبدت منه — كما يقول أحد المؤرخين^(٢) — « خفة وطيش ، وأمور خرج بسببها عليه بما ليك أبيه ، وهم عصب الدولة ، لاسيما بعد أن تفرق الأكراد — منذ أيام أبيه — عن أبيه الذي رعى للبحرية حقهم^(٣) » ، كما أنه لم يراع يد شجر الدر عليه ، فأسرف في تهديدها ومطالبتها بمال أبيه ، فلا عجب إذا كانت هي العامل الأول في تحريك الصالحية عليه ، رغم أن أباه هو الذي اصطفاها وأوجدتهم ؛ لكن الواقع أنهم كرهوا منه عدم اعترافه بجميلها عليه ، وارتكب كذلك من الكبائر ما لم يعرف قط عن أبيه ، مما حرك النفوس ضده^(٤) ، ووجد الكارهون له

-
- (١) أبو شامة : كتاب الروشتين ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ ، أبو الفدا المختصر
ص ١٢٨ ، المقرئى : الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .
(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .
(٣) المقرئى : الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .
(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

خير مفرّج عن حقدهم عليه في شخص بيمرس البندقدارى ، فقد ضربه بالسيف — وهو بفارسكور — ضربة بانّت منها أصابعه ، فالتجأ إلى أحد الأبراج ، فتتبعه المماليك البحرية وأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب ، فألقى بنفسه من عل وفر إلى البحر وهو يقول « ما أريد ملكا ، دعوني أرجع إلى الحصن ^(١) ، يا مسلمين أما فيكم من يصطنعني ويحيرني ؟ » فلم يلب أحدا رجاءه ، بل سبّحوا خلفه في الماء وقطعوه بالسيوف ، فمات جريحا حريقا غريقا ^(٢) .

نجحت مؤامرة شجر الدر بالانفاق مع المماليك البحرية الذين بايعوها وهى « المستعصمية الصالحة ^(٣) » ، ملكة المسلمين ، والدّة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين .

١٢

تطوّرت الأحوال بعد مقتل تورانشاه ^(٤) ، واستحوذ شجر

(١) يقصد حصن كيفا ، الذى كان أبوه قد رتبّه عليه وأقرّه به ، راجع المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) انظر فى ذلك كله ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٧١ ب ، الروضين لأبى شامة ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ ، وابن العباد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢ ، والذيل على الروضتين ، ص ١٨٥ ، Stevenson : Crusaders in the East, p. 332.

(٣) راجع مناقشة الدكتور زيادة لهذه النسبة فى السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، حاشية رقم ٤ .

(٤) قد يكون من اللائم فى هذا المجال أن تشير إلى الناحية الأدبية التى كان =

الدر على مقاليد الحكم ، فقد طمع بعض كبار المماليك ، أمثال فارس الدين أقطاي^(١) الجمدار ، الذي كانت إليه مقدمة المماليك البحرية^(٢) ، في أن ينالوا لأنفسهم القدية من لويس^(٣) ، لا سيما وأنه لم يكن دفعها كلها ، ذلك لأن الفترة التي تولاهما تورانشاه لم تعد الثمانين يوما^(٤) . ورأى الصليبيون أن هذا الوقف من جانب الصالحية إنما هو ثغرة في صفوف أولى الأمر بالبلاد ، فأرادوا اغتنام هذه الفرصة وعدم تسليم دمياط ، كما تم الاتفاق بين الملك لويس وبين تورانشاه^(٥) من قبل ، بل ذهبوا أبعد من ذلك إذ رفضواهم أنفسهم

= عليها تورانشاه « فقد أدركته حرفة الادب » على حد قول أحد المؤرخين ، حيث يذكر أيضا (شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٢) أنه حين قدم مصر ألقى ابن الدجاجة تاج الدين أمامه قصيدة قال فيها :
كيف كان القدوم من حصن كيما حين أرغمت للأعدى أنوفا
فأجابه تورانشاه على التو ومن نفس البحر والروى :

الطريق الطريق يا ألف نحس تارة آمنا وطورا مخيفا
بل إن لدينا شهادة مؤرخ ثبت وشاهد عيان ، ذلك هو القاضي جمال الدين بن واصل ، إذ يقول « جرت بيني [ابن واصل] وبينه [تورانشاه] مباحثة في أنواع شتى من العلوم والآداب » ، راجع مفرج الكروبي ، ورقة ٣٦٧ ب .

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

(٣) Migne. Dict des Croisades, p. 422. (٤)

(٤) المقرئى : الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٥) Manus. de Rothelin, p. 616 — 617. (٥)

طلب لويس ذاته حين طلب منهم ذلك الطلب، وكان وسيط الاتفاق بين الطرفين المصرى والفرنسى : الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الذى كان أثيرا عند لويس كما ينص على ذلك العيني^(١) ، وكانت كفة الجانب المصرى راجحة لعودة المماليك جميعهم صفا واحدا ويذا واحدة ، ولذلك اتفق على أن يدفع لويس نصف الفدية نقدا عاجلا ، وأن يتسلم المماليك دمياط ، ومن ثم يسمح له وهو وكبار رجال المملوكية بالرحيل إلى فرنسا ، أما بقية رجال الجيش وكونت بواتو فيظلون فى أسر المصريين حتى تستوفى مصر النصف الباقى^(٢) . وعلى أية حال فقد تمكن الفرنسيون من دفع النصف ، والفضل فى ذلك كله راجع — كم يقرر اين بول — إلى المملوكية مرجريت دى بروفانس^(٣) ، ويرجعه البعض الآخرون إلى روبرت بطرك بيت المقدس^(٤) .

وُزع الأسرى على المحلات المختلفة التى عينها لهم المماليك ، ولم يبق هناك سوى المملوكية مرجريت والبحارة الجنوبية والبيازنة الذين غلبت عليهم الصفة التجارية ، ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ، ونظروا إلى مصالحهم التجارية وقدموها على كل شئ ، وإنه ليصدق

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ٢١٣ ، وراجع فى ابن واصل : مفرج الكروب ص ٣٧٣ ب ، محاولاته مع الملك لويس بعد أسره .

(٢) Joinville : Memoirs, p. 229.

(٣) Lane — Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 250.

(٤) Grousset : Histoire des Croisades, t. III, p. 489 — 490.

في وصفهم ما يقوله بعض الكتاب عن شعار البنادقة^(١) من أنهم «تجار بنادقة أولا، ثم مسيحيون ثانيا» Siamo Veneziani, poi Chirstiani لذلك نراهم يقررون فيما بينهم الرحيل الفجائي أو الهرب من العواقب الجسيمة الخطار على لويس والملكة التي كانت تعاني آلام الوضع^(٢)، بل لعلهم كانوا مقدرين لتلك العواقب، ولكنهم لم تكن تعنيهم قدر عنايتهم بالنجاة بأنفسهم، وليكن بعد ذلك ما يكون على رأس الملك والملكة التي علمت بتلك الأخبار المؤلمة، فاستدعت رؤساهم في حجرتها الخاصة حتى اكتظت بهم، وجرى بينها وبينهم حديث.

كان جواثيل أمينا في نقله هذه الحوادث إلينا، حيث ذكر أنها قالت لهم «أيها السادة، استحلفكم بالله ألا تغادروا هذه المدينة [تعني دمياط] لأنكم ترون أنها لوضاعت من أيدينا لكان في ذلك هلاك سيدي الملك هلاكا أبديا، وكذلك الحال إزاء جميع الأسرى الذين معه، فإن لم تحرك تلك الحال منكم عاطفة ما فلا أقل من أن تأخذكم الشفقة على تلك المخلوقة البائسة الضعيفة الراقدة هنا أمامكم^(٣)، وانتظروا حتى أبل من مرضى.» فأجابوها «يا مولانا، ماذا في قدرتنا عمله

Davis : The Invasion of Egypt, p. 24. (١)

Joinville : Memoirs, p. 234 et seq. (٢)

(٣) تعني نفسها، إذ كانت تعاني آلام الوضع.

إننا نوشك أن نموت جوعاً في هذه المدينة ! » فذكروهم بأن الجوع لا ينبغي أن يحملهم على الرحيل « لأنها ستيسر وجود الطعام في السوق وبيعه ، وستجعلهم جميعاً يقيمون على حساب الملك ^(١) » وبذلك استطاعت إقناعهم بالبقاء حيث هم حتى يتم ترحيل الملك ومن اتفق على ترحيله معه .

ذلك موقف غير مستغرب من جماعة حرفتها التجارة وهمها الأول الكسب المادى ، وكان الواجب يقتضى من لويس التنبه إلى هذه المسألة منذ البداية ، وألا يرحب بمعونتهم إياه أو يعد وقوقهم إلى جانبه نصر آله ، وإن العامل الحقيقى الذى يدعوهم الآن لركوب هذا المركب هو الذى دعى البنادقة لعدم الترحيب فى مستهل الأمر بالانضمام إلى صفه فى محاربة مصر ، إذ كانوا ينظرون أولاً وقبل كل شيء إلى مصالحهم الذاتية ، ولا يعنهم شيء سواها .

على أية حال تم الاتفاق بين الأمير حسام الدين محمد أبى على وبين الملك لويس التاسع على وجوب تسليم دمياط ودفع نصف الفدية المطلوبة ، وتم ذلك يوم الجمعة (٣ صفر - ٦ مايو ١٢٥٠م) ورفع على سور المدينة العلم السلطانى ، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق ، فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهراً

وتسعة أيام^(١) ، وكانت هذه الواقعة أعظم من الأولى بأضعاف مضاعفة^(٢) ، ومالبت الممالك أن أطلقوا سراح أخى الملك ومن فى أسرهم من جند هذه الحملة ، وكذلك من أسروهم منذ أيام العادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب^(٣) ، والفضل فى هذا راجع إلى مهارة مؤرخ الحملة الفرنسية الذى لانبج أن نختم هذه الأسطر دون أن نقارن بين إخلاصه للصالح العام وبين مطامع فرسان المعبد المادية ، حيث وجدوا أن الفدية تنقص ما يقرب من ثلاثين ألف دينار سورية ، فأشار جوانفيل على الملك باستدانتها من الداوية فقال له ، أحدهم « يالورد جوانفيل ، ليس فيما أنشرت به على الملك شىء من الخير أو العقل ، لأنك تعلم أننا أقسمنا على ألا نعطى ما يصلنا من الأموال إلا لمستحقها » واشتد الجدل بين الفارس المسيحى الذى من مبادئه الفقر والطاعة ، وبين المؤرخ شدة تبين مما يعقب به جوانفيل على ذلك « بأنه جرت بينى وبينه كلمات قارعة شديدة » ، على أن جوانفيل استطاع بالقوة أن يأخذ ما أبت عليهم رحمتهم التنازل عنه^(٤) .

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٧٤ ، المقرئى : السلوك ، ج

١ ، ص ٣٦٣ .

(٢) ابن واصل : شرحه ، ص ٣٧٤ .

(٣) المقرئى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) Joinville : Chronicles, p. 229 — 231 .

تم تسليم القدر المتفق عليه من الفدية ، وحينذاك حمل الملك
ومن معه على باخرة جنوية أقلعت به إلى عكا ، فكان وداع المصريين
له هذه الأبيات التي نظمها جمال الدين بن مطروح حيث يقول :

قل للفرنسيس إذا جثته	مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر آتبتغي ما كنها	تحسب أن الزمر يا طبل ريج
فسافك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظر بك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهمو	إلا قتيل ، أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكهو يستريح
إن يكن «الباب» ^(١) بذاراضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة	لأخذ ثأر ، أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صيح ^(٢)



بهذا ختم الدور الأول من الحملة الصليبية السابعة التي وقعت في
ختام النصف الأول من القرن الثالث عشر على مصر ، وانتهت
بمعركة المنصورة التي حفظت مصر والشام والعراق من أن تحتاحها
القوات الفرنسية وتحيلها إلى إمارات صليبية .

(١) « الباب » يقصد بها بابا رومية .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ، ص ٣٧٠ ب .

غادرت الحملة الصليبية مصر .

ولم يكن معنى ذلك أن الرواية قد تمت فصولها ، فقد انطوى الفصل الأول بهزيمتها في المنصورة ، واستظهار جماعة المصريين عليها لذلك كان لابد للقائمين بشئون أمور الحملة — لاسيما الملك لويس — من أن يثبتوا للبلاد من أهل فرنسا والغرب أنهم لا يعترفون بتلك الهزيمة النكراء ، فكان من أذبال ذلك الفصل الثاني ، وكان مسرحه فلسطين . أجل فلسطين أرض السلام قُدِّر لها أن تكون مسرح حرب يثيرها الغرب الطامع في الشرق :

فلسطين يادار النبوة هكذا نصير جنان الخلد دار جهنم ؟
مهما يكن الأمر فقد كان ارتداد الحملة الفرنسية عن مصر هزيمة ساحقة للقوات الفرنسية ومن صحبها من القوات الأوربية ، كإلياذنة والإنجليز ، بل إن عدم استطاعتها مجاوزة المنصورة — بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن منذ وصولها إلى أرض الدلتا سنة ١٢٤٨ — دليل واضح على أنها جلبت على نفسها الدمار والعار معاً ، وعرضت بقية القوات الفرنجية في بلاد الشام لخطر الزوال ، نظراً لمتاخمتها قوات إسلامية تابعة لمصر . والملاحظ عامة أن كل حملة صليبية وجهت إلى الشرق — بعد حملة ١٠٩٧^(١) — كانت تؤدي في النهاية

(١) حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٥ وما بعدها .

— عن غير قصد طبعاً — إلى إضعاف الأمراء الصليبيين والإمارات اللاتينية في الشرق الأدنى^(١)، واستمر هذا الضعف يزداد باستمرار بحجى الحملات المختلفة، وكلها تحفر قبرها بيدها.

على أن حملة لويس وجدت في بداية الأمر معارضة وتأيداً من بعض أمراء الفرنجة بالشام، ذلك أنهم كانوا يظنون — وبعض الظن مهلكة — أن مصر لن تستطيع المقاومة نظراً للنزاع الناشب بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبين عمه بكمص، ولشدة معاملة السلطان لمن حوله، وذهب بهم الظن مذنباً بعيداً عن الحقيقة، وجاوز الواقع حين صور لهم أن في استطاعتهم الاعتماد على هذه الكراهية وعلى وقوف الأقباط إلى جانبهم، والواقع أن هذا الظن أوردتهم أسوأ الموارد، فلم يجدوا ما كانوا يؤملون، وطاشت أحلامهم بدداً، وحينذاك أفاقوا على الحقيقة المرة، وأى حقيقة أمر وأنكى من أن يجدوا كبيرهم — وهو لويس التاسع — أسيراً هو وإخوته وكبار مملكته، والقيد في يديه وقدميه هو ومن معه، وتتحكم فيهم جماعة المماليك البحرية، ويصبحون غرضاً يرمى بالسهم، ولا يستطيعون دفع ما حاق بهم من الأخطار، وأدرك أولئك الأمراء الفرنجة أن النوبة قد اقتربت منهم، وأنهم سيكونون الهدف التالى للقوات المصرية بعد أن أذاقت الفرنسيين مرارة الهزيمة رغم جيشهم العظيم

(٢) حبشى: نور الدين والصليبيون، ص ١٠ — ٣٧.

وأسطولهم الفخم ، وجعلتهم يدركون خطورة مغبة الإقدام على تلك المحاولة الفاشلة التي أقدموا عليها ، غير حاسبين لبراعة الفرسان المصريين حساباً ، بشهادة رجالهم هم أنفسهم (١) .

أقفلت السفن بالملك لويس وباروناتِه إلى عكا ، وقد رجعوا من الغزو بالهزيمة النكراء ، وفقدوا هيبتهم في نفوس الأهالي في كل مكان ، وأدركت الجاليات الأوربية المقيمة بالوادي أنها لن تستطيع التفاخر بأبجاد البطولات الحربية لفرنسا أو لغيرها ، إذ العهد جد قريب بفشل جميع محاولات أوربة في هذا السبيل ، فمنذ ثمانين سنة لم تستطع قوة فرنسا وإنجلترا معاً أن تسلبا بلاد فلسطين من سلطان مصر صلاح الدين ، بل إن الجقوة سرعان ما دبَّت بين فيليب أغسطس وبين ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا النزمندى ، كما أنه لم يعد لملك بيت المقدس ما كان له في بداية الأمر من الهيبة والسلطان على بقية أمراء الفرنجة في الشام ، كما حدث ذلك في أمر «جى دى لوزنيان» ، وكيف رده أهل صور وداغير كريم ، لم يخف على أحد ما حتى على السكتاب المسلمين (٢) .

على أن لويس التاسع وجد ما عوضه عن هزيمته بمصر في حسن

(١) Davis : The Invasion of Egypt. p. 18.

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٠٢ .

الاستقبال الذى قوبل به من جميع طبقات الأهالى : مدنيين كانوا أم دينيين ، فقد انعقدت القلوب على محبته ، ولعل البلوى التى مرت به زادت العطف عليه ، ولعل هذا الترحيب مرجعه أن هذه الجماعات الأوربية فى بلاد الشام لم تكن تظن نجاته من أسره بعد هزيمته الشنعاء فى المنصورة ، وبعد ما ترمى إليها من الأخبار المروعة بشأن مصير أخيه كونت دارتوا ، ولذلك عدت هذه الجاليات فكاهة من الأسر ووصوله سالماً إلى عكا نصراً للسيحية ببقائه حياً حراً ، وهو من هو فى أخلاقه وسجاياه :

وندعو كريماً من يجود بماله ومن يبذل النفس النفيسة أكرم

* * *

كان لويس يطمح أن يذهب إلى عكا فتموافيه هناك إمدادات صليبية جديدة من أوربة يشتد بها عضده ، فيستطيع أن يمحوعار المنصورة ، ولكنه بقي ما بقي من الزمن الطويل فى فلسطين منتظراً — على غير جدوى — هذه القوات التى لم تحضر له أبداً ، ولم يكن عند فرنجة الشام استعداد تام للحرب ، زد على ذلك أنهم لم يكونوا خالصى النية فى الاشتراك فى حرب ضد جيرانهم المسلمين بعد أن شاهدوا فشل الحملات الأوربية المتتالية ، وقدرة مصر على وجه الخصوص على صدّها وهزيمتها ، ثم إن هؤلاء الفرنجة المحليين طمعوا أن يكون مقدم لويس التاسع إلى عكا واضعاً حداً للنزاعات المحلية التى كانت

بين بعضهم والبعض الآخر ، كالقتال الذي جرى في شوارع المدينة قبل بضعة أسابيع من مجيء لويس بين البيازنة والجنوية ، وأدرك من لاهم ناقة في هذا النضال ولا جمل أن الخير معقود بمقدم لويس ، عسى أن يستطيع فرض شخصيته على المتنازعين فيقر السلام بينهم ، ولعل هذا كان أحد الدواعي التي دعت له لطول البقاء في فلسطين كما سنرى .

١٤

على أن مجيء لويس إلى عكا جعله في مأزق حرج ، فهو بين داعي الرحيل إلى فرنسا استجابة لطلب المملكة الوالدة ، وبين وجوب البقاء حيث هو مراعاة للصالح الصليبي العام ، أما المملكة « بلانش » فقد كتبت إليه تخبره بطمع الإنجليز في الوثوب على المملكة في غيبته ، لم يشأ لويس أن يبت في تقرير بقائه أو رحيله برأى قاطع ، دون الاستعانة بمشورة رجاله الذين جمعهم لهذا الغرض ثلاثة أحاد متتاليات ، واستعرض معهم الأخطار الداخلية والخارجية ، تاركا لهم تقليب الحال على مختلف وجوها ، عسى أن يصلوا إلى حل يراعون فيه مصالح فرنسا الداخلية ، والمحافظة على سلامة الإمارات الفرنجية بالشام .

عقد أول اجتماع بين هؤلاء المستشارين وبين الملك يوم ١٩ يونيو سنة ١٢٥٠ ، وقد ترك لنا د جوانفيل ، صورة قلبية لهذه

الاجتماعات إذ كان حاضرها ، ومنها تنبئين أن القوم بأجمعهم تقريباً كانوا يؤثرون العودة إلى فرنسا ، بل إن أخوى الملك كانوا من أنصار هذه الفكرة ، فقد بعث لويس في طلبهما وفي طلب كبار من صحبه من أشرف فرنسا ، وخطبهم قائلاً : أيها السادة ، إن سيدتى الملكة الوالدة قد بعثت إلى ترجونى أن أبادر بالعودة إلى فرنسا لما يحقق بمملكتي من الخطر ، إذ لم ينعقد السلم بينى وبين ملك إنجلترا ، وليست بيننا هدنة ، ولقد أخبرنى أهالى هذه البلاد [يعنى فلسطين] أن ضياعها مرهون برحيلي عنها . . لذلك أتوسل إليكم أن تفكروا فى الأمر ملياً ، ولخطورة هذه المسألة سأمهلكم ثمانية أيام بدايتها اليوم ، تقلبون الأمر فيها على وجوهه .

وفى أثناء المدة المضروبة يكشف لنا جوانفيل القناع عن المحاولات التى كانت تبذل من وراء ستار لحمل لويس على العدول عن فكرة البقاء فى الأراضى المقدسة إن فكر فى ذلك تفكيراً جدياً ، ووسيلة القائمين بتلك المحاولة هى إغراء المقربين إلى الملك بالاستعداد للرحيل ، حتى يجد لويس نفسه أمام الأمر الواقع وحيداً لا سند له ولا عضد يؤيده فى الإقامة ، وفاتهم ما انطنبع عليه من الإصرار الشديد على القيام بما يرى فيه خيراً للصالح المسيحى ، حتى ولو أدى ذلك إلى هلكه ودماره . ومهما يكن الأمر فقد انعقد المؤتمر يوم الأحد التالى لليلة الثانية ، وانعقد إجماع القوم على

وجوب الرحيل في الحال ، وتكلم لورد « جى دى موثوازان » نيابة عن المجتمعين ، وخطب قائلاً « مولاي ، إن أخويك وكبار رجالاتك الملتئم جمعهم هنا قد تدبروا أمر دولتك ، وتبين لهم أنك لن تستطيع الإقامة حيث أنت وحيث نحن ، وذلك لأن الفرسان الذين جئت بهم لم يبق منهم غير مائة فقط ، بعد أن كانوا ألفين وثمانمائة فارس ، ولذلك فإننا نمحضك الرأي بأن نرحل على جناح السرعة . وأن تنتقم من في أسرك من أعداء الرب . »

لم يكن المجتمعون في الواقع ليعينهم حفظ الأمور سليمة في فرنسا بقدر مانعينهم مصالحهم الذاتية ، ولم يكونوا رجالا ذوى مثل عليا كلويس التاسع ، الذي كان الواجب يقتضيه الالتفات إلى هذه المسألة وإلا كبده نفسه متاعب جمّة ، فهو لاء الأمراء جميعا ، حتى إخوته أنفسهم ، يهمهم أن يعودوا إلى فرنسا مسرعين جهد ما أمكن بعد أن فشلت ربح الحملة ، وقد كان لهم غنية في وطنهم لو أنهم استطاعوا إحراز النصر على المماليك في مصر وإخضاعها لسلطانهم ، أما وقد بلوا الصالحية والجمدارية فقد تبين لهم خطل الحرب ، ولم يكن بيت المقدس ليعينهم بقدر ما يعنى لويس ، فأولئك قوم إقطاعيون يهمهم عرض الحياة الدنيا .

بانت للملك نوايا رجاله الذين لم يتورعوا عن إماطة اللثام عن حقيقة مبتغاهم ، ولعل لويس تعجّب في هذه اللحظة بالذات كيف

يحملهم متاع الدنيا على الانصراف عن نجدة الأراضى المقدسة ،
والموت عند لويس فى هذه البقعة أحلى مورداً :

يانفس إن لم تقتلى تموتى إن تسلمى اليوم فلا تفوتى
أو تبلى فطالما عوفيت هذه حياض الموت قدصليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلى فعلمها هديت
وإن توليت فقد شقيت

أخذ الملك يسأل المجتمعين واحدا بعد واحد ، فكان القول
ماقاله لورد « جى دى موثوازان » ، ولم يشذ عنهم سوى « جون
كونت يافا ، وجوانفيل » .

اشتد الجدل بين جوانفيل وبين المجتمعين شدة لم تستطع رغم
عنفها أن ترحزه عن مكانه ، فلما رأى الملك ما آل إليه السادة
الأشراف من الحدة والغضب — حتى لقد تفوه بعضهم بالسب —
لم ير الملك بداً من فض الاجتماع ، على أن يعطيهم رأيه بعد
ثمانية أيام .

انعقد المؤتمر يوم الأحد ٣ يوليو ، وتكلم الملك فقال : « أيها
السادة ، إننى لأشكر أولئك الذين نصحونى بالعودة إلى فرنسا ، كما
أشكر من نصحونى بالبقاء هنا ، على أننى أظن أن بقائى حيث أنا
لن يؤدى إلى ضياع ممالكى ، لأن لدى سيدتى المملكة الوالدة كثيرين
من القادرين على الدفاع عنها ، غير أن أشراف هذه الأرض

[فلسطين] أخبروني أن في رحيلي ضياع مملكة بيت المقدس ،
إذ لن يجرؤ أحد ماعلى الإقامة بها بعد مغادرتي إياها ، ومن ثم
صممت على ألا أغادر مملكة بيت المقدس التى قدمت لحراستها
واستردادها^(١) .

وبهذا قطع الملك قول كل معترض ، وقضى فشنى ما فى نفوس
الأقليّة ، ولم يدع لذى إربية فى القول قولاً ، على أنه ترك الحرية
فى الرحيل لفرنسا لمن شاء ، أو البقاء معه ، فكان أول المغادرين
أخواه شارل دابجوا وألفونس كونت بوانيه . أما من بقى إلى
جانب الملك فقد أخذ الملك فى دفع نفقاتهم من جيبه الخاص ،
وكتب رسالة إلى الأمرا مودوى المـكانة فى كل ناحية ، يدعو لتجديد
القوى لحرب صليبية جديدة .

طالت إقامة لويس فى الأراضى المقدسة أكثر مما هو متوقع ،
إذا استمرت أربع سنوات سويا ، ولقد نـعجب لطول هذه المدّة
التى لا مبرر لها ، لكن السـتر ينكشف عن الدوافع الحقيقية إذا
فتشنا عنها خارج دائرة الصليبيين ، وأعنى ذلك الصراع الخفى حينما
والظاهر أحيانا ، الناشب بين رجال الدولة المملوكية فى مصر والشام ،
وهو نزاع لا بد لنا من الإشارة إليه فى هذا المجال ، لنعرف أن لويس
كان يطمع أن تشد الجفوة بين مصر ودمشق ، وأن نزيل إحداهما

(1) Joinville: Memoirs of the Crusades, p. 240 — 242, 243 — 244.

الأخرى فيخلو له الجو حينذاك لتحقيق أهدافه وضرب القوة الإسلامية الباقية ؛ ولعل أصدق ما يوضح هذه الفكرة هو أنه لم يجب برأى قاطع حين عرض عليه الناصر صاحب حلب الاتفاق معه ليكونا يداً واحدة ضد المماليك البحرية ، على أن يسلمه الناصر مدينة بيت المقدس ^(١) .

على أنه ينبغي لنا أن نقول إن هذه الحرب لم تكن بين مصر والشام كدولتين ، ولكن بين مطامع شخصية بين الناصر يوسف وبين السلطان ، وعلى ضوء هذه الحقيقة يجب أن ندرس ما جد في تلك الفترة من الصراع ، وقد فات لويس تقدير هذه الحقيقة ، مما لم يجعل للإقامة الطويلة في فلسطين أية جدوى مرجوة .

١٥

كانت حلب تحت حكم الناصر يوسف من الفرع الأيوبي ، وقد غضب لإزالة بيته من مصر نتيجة مقتل تورانشاه تلك القتلة المروعة ، ولم يعد يعترف بالوضع الجديد الذي حدث ، بل إنه رأى نفسه أولى من غيره بتولى الحكم ، وإذا كانت للمماليك سلطة فإن هذه السلطة لا ترقى إلى الجلوس في دست الإمارة بأية حال من الأحوال ، ولذلك كانت مهمة لويس في هذه الفترة بالذات هي ترقب الأمور

(١) Ibid., p. 245 — 246.

عن كشب لينضم إلى أحد الفريقين عساه يعوض ما فاتته من حملته المشتومة .
لم يفت الناصر تقدير هذه الناحية عند لويس ، فكتب إليه يسأله
أن يقف إلى جانبه في محاربتة المماليك البحرية انتقاماً منهم لقتلهم
توران شاه ، وترددت الرسل بين الأمير المسلم وبين الملك الصليبي ،
الذي أنفذ من قبله رسوله Yves ، وكان مثقناً للسان العربي إتقاناً
تاماً ، ولكن لويس اضطر للوقوف على الحياء ، خوفاً على الفرنسيين
الذين لا يزالون في أسر مصر من أن يفتك بهم المماليك . إذا علموا
بهذا الاتفاق بينه وبين صاحب حلب ، وكان رده أنه لا يستطيع
الوقوف إلى جانبه ، حتى يعرف إذا كان أمراء مصر مستعدين للتكفير
عن فسخهم المعاهدة المبرومة بينه وبينهم ^(١) .

كانت دمشق حينئذ تحت سلطان أسرة كردية من المماليك
الأيوبيين تعرف « بالقيمرية » ، فما طالعهم أخبار مصر وانتقال
الحكم فيها إلى شجر الدر التي مالبثت أن تنازلت عنه لزوجها الجديد
حتى أخذتهم سورة الغضب ، وفكروا في وجوب إرجاع الأمور
إلى نصابها ، وأبوا أن يخرج الملك من الأسرة الشرعية ؛ وبدأت
ظواهر الحركة الجديدة من التمرد على إقامة شجر الدر في الحكم ،
حين وصل رسول من قبلها إلى دمشق لاستخلاف من بها الأمراء ،
فلم يحبه أحد ما من الأمراء القيمرية ، ولا الأمير جمال الدين بن
يغموor نائب السلطنة ، وكان تورانشاه قد أمره بها وهو في طريقه
إلى مصر بعد موت أبيه واستدعاء شجر الدر إياه .

(1) Joinville : Op. Cit., p. 245 — 246, 251.

تلفت الأمراء القيمرية في دمشق حولهم عساكرهم يحدون قوة يستعينون بها على تأديب المماليك البحرية الذين فتكوا بتوران شاه ابن مولا هم الراحل ، والذين أقروا أن يساق العرش إلى امرأة ، بما أغضب الخليفة ذاته ببغداد ، حتى لقد بعث إليهم : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً »^(١) ، وترتب على هذا الوضع أن امتنع الأمراء القيمرية عن الحلف لشجر الدر ، وكتبوا بذلك إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد صاحب حاب ، يحثونه على المسير إليهم ليسلموه دمشق^(٢) ، وطبعي أن يرهب الناصر يوسف بهذه الدعوة ، ولا مشاحة إذا عجل بالهوض لما هو كامن في جوانحه ، وبادر فزحف على دمشق ودخلها يوم ٩ يوليو ١٢٥٠ (١٠ ربيع الثاني) دون قتال ، بفضل خيانة الأمير ناصر الدين أبي المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس ، وتسلم صاحب حاب قلعة دمشق ، واستولى على ما بها من الأموال ، وأخذ في تفريقها على الأمراء القيمرية وغيرهم .

ترامت هذه الأخبار إلى مصر فأدَّت إلى حدوث كثير من الاضطرابات ، فجدد الأمراء والمماليك الأيمان لشجر الدر التي بادرت إلى الزواج من الأمير عز الدين أيمن الجاشنكير التركماني بعد أن خلعت نفسها من الحكم ، ولعلها فعلت ذلك لكي تنقي غضب بغداد

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ ،

وراجع أيضاً دائرة المعارف الإسلامية مادة "Al-Nasir" .

أولاً ، حيث كره الخليفة المستعصم بالله أن تتولى امرأة شئون الحكم في مصر ، أضف إلى هذا أن تولى أيبك الحكم فيه تقرب للهوة الفاصلة بين المماليك البحرية وبين الذين يؤثرون أن تظل الولاية في البيت الأيوبي ، وكان أيبك قد انتقل إلى السلطان الصالح نجم الدين ^(١) . على أن تولية أيبك التركمان كانت خير معوان لدعاة فكرة وجوب إرجاع السلطنة إلى البيت الأيوبي ، أياً كان هذا الشخص ، ما دامت صفات السلطة متوفرة فيه ، ولذلك كان مجيئه للحكم تأييداً لدخول الناصر يوسف ، بل إن المماليك البحرية شعروا بهذا فأجمعوا على أنه لا بد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ، ليجتمع الكل على طاعته ، ويطيعه الملوك من أهله ، ، فوقع اختيارهم على صبي صغير ^(٢) .

على كل حال لانحب أن ندخل بالقارىء في تفصيلات دقيقة ، ولسكننا نوجز فنقول إن الناصر يوسف - صاحب حلب - قد استولى على دمشق بفضل الأمراء القيمرية ، واجتمع حوله جميع أفراد البيت الأيوبي ، صغيرهم وكبيرهم ^(٣) ، وكانت ساعة فاصلة

(١) فيما يتعلق به راجع السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، وحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٧٦ .

(٣) راجع أسماء من انضموا إليه في زحفه على مصر في المقریزی ، السلوك ، ج

١ ، ص ٣٧٢ ، ابن واصل ، شرحه ، ص ٣٧٩ ب .

في تاريخ هذا البيت الذي أسسه صلاح الدين منذ أكثر من ثمانين سنة، وخرج الجميع قاصدين مصر أو على الأصح محاربة المماليك البحرية. زحف الجيش الأيوبي الشامي على مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء، حتى بلغ «العباسة» من أعمال مديرية الشرقية، والواقع أن خبر هذا الزحف أزعج المماليك البحرية غاية الإزعاج، فأعلنوا مرة أخرى أن مصر للخليفة المستعصم بالله العباسي، وأن الملك المعز أيبك نائبه بها، وزاد المعز بأن سار أمام الأشرف مظفر الدين كحاجب له، كما نودى في القاهرة — كذبا — أن الصلح قد انتظم بين مصر وبين صاحب السكر، عسى أن يؤدي ذلك كله إلى توقف الناصر عن الزحف.

غير أن شيئا من ذلك كله لم يؤدي إلى ما كان القوم يؤملونه، وحينذاك لم يجد الجيش المملوكي بداً من التحرك، فسار حتى بلغ الصالحية، واقترب جيش الناصر يوسف من العباسة، والتحم المصافان، وبدأت كفة الشاميين ترجح على المماليك، ثم مالبت أن شالت لكثرة الأمرار الذين فارقوه وقت القتال وانحازوا إلى صفوف المعز، وأظهر الفارس «أقطاي» في هذا اليوم من البسالة والفروسية ما جعل النصر دانياً للجيش المملوكي، وساق المعز يريد الأطلاب، فأسر الكثيرين من رجالات جيش الناصر، وكاد الشريف المرتضى أن يهلك في هذا اليوم لولا أن أسعفه نسبه،

فصاح « أنا رجل شريف ، وابن عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكانت نجاته في ذلك القول ^(١) .

دخل المعز القاهرة ومن خلفه الأسرى الأيوبيون ، وأقيمت معالم الزينة والأفراح ، وأخذت المدينة زخرفها ودقت البشائر .. على أن الرواية لم تتم عند هذا الحد فصولا ، فقد استطاع الناصر يوسف أن يرجع إلى الشام سليما في نفسه ، مجروحا في هيئته وكرامته وجيشه ورجاله ، وهنا يبدأ دور جديد من هذه الرواية ، يدخل فيه لويس التاسع ذاته ، وتتشابك المصالح الصليبية بالمصالح الأيوبية والمملوكية .

* * *

لقد رأينا آنفا كيف أن الملك لويس لم يشأ أن يمد يد المعونة إلى الناصر يوسف حين أغراه على ذلك الأمر في بدء نضاله ضد شجر الدر والمعز أيبك وبقيّة المماليك البحرية ، والواقع أن لويس كان حكيما في هذا التصرف ، فقد استطاع بهذه السياسة السلمية أن يفتك من الأسر كثيرًا من الفرسان ورجال الجيش الفرنسي الذين كانوا لا يزالون في قبضة المصريين ، ولم يكن أمام المماليك بطبيعة الحال إلا أن يحيموا اللويس مطلبه ، حتى لا يحملوه على مناصرة عدوهم ، وبذلك استطاع الملك أن يستغل فرصة الخلف الواقع بين الأمراء لمنفعته .

(١) راجع ذلك كله في السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٢ — ٣٧٦ ، ابن تغري

بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦ — ٩ .

على أن المالك عادوا من جديد يعرضون على لويس الخروج من فلسطين والوقوف إلى جانبهم لقاء تسليمه بيت المقدس ، رغم أنها كانت في يد الناصر يوسف ، « ومال الجيش المصرى بالفرنج ، ووعدهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصرهم على الشاميين » (١) ، ولم يكتفوا بذلك ، بل عرضوا عليهم أن يطلقوا سراح البقية الباقية من عسكره ، ويبلغون قرابة إثني عشر ألف محارب ، ومع ما في هذه العروض السخية من تشجيع الصليبيين على قبولها إلا أن لويس كان مضطرا لقبول مثل هذا الاتفاق ، إذ هو في موقف يمل فيه عليه ، وليس في الموقف الذى يمل فيه على المالك خفاف الناصر مغبة هذا الاتفاق ، وأدرك أنه موجه ضده ، ففيه ضياع القدس من يده ، كما أن لويس — بمقتضى هذا الاتفاق — كان له حق الاستيلاء على بيت لحم والخليل ونابلس والجليل وجزء من نهر الشريعة ، لذلك أنفذ الناصر جندا من لدنه ، قوامه أربعة آلاف محارب للاستيلاء على غزة .

والمأمل في هذا الوضع الذى استعرضناه سريعا يتبين — في غير عسر — أن شقة الخلاف كانت تزداد يوما بعد يوم بين أمراء البلاد في الشام ومصر ، وكان لويس بطبيعة الحال يعمل على إذكاء جذوة الخلاف ، ولم يخف الأمر على الخليفة المستعصم بالله ، الذى أدرك ما وراء هذه الحركات من ضعف القوات الإسلامية عامة ، وانتفاع الفرنسيين وحدهم من ورائها .

هنا برز موقف بغداد من هذه المسائل بروزاً واضحاً ، فيه تقريب مسافة الخلاف بين المتخاصمين ، وائعمل على إزالة الجفوة وإقرار السلام حتى لا يجد الدخيل الغربى منفذاً ينفذ منه ، ولذلك عمد الخليفة إلى إرسال رسول من قبله ، هو الشيخ نجم الدين أبو محمد عبدالله البغدادى القادرى^(١) ، وتم على يده الصلح فى إبريل ١٢٥٣م (= ٦٥١هـ) بين مصر والشام ، واتفق على أن يكون « للمصريين إلى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك ، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وأن المعز يطلق جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر^(٢) » . وبذلك استقرت السيفوف فى أغمادها « وسكنت الفتنة بين الملوك ، واستراح الناس ، ، وعادت المياه إلى مجاريها .

كانت هذه الحركة من بغداد ضربة معلم جاءت فى وقتها . لقد أفسدت الحركة العراقية الموفقة خطة لويس ، وانهارت من جرائها آماله العريضة التى كان يؤملها من وراء الصراع الناشب بين أمراء مصر والشام ، وما كان يطمع فيه من أن تضرب إحدى القوتين الأخرى فتضعفان معا ، ثم يفرغ من الاثنتين ؛ وبذلك تخلص له بلاد الشام بأجمعها ، وربما مصر أيضاً ، ويتأتى له حينذاك أن يمسح عار هزيمته فى المنصورة .

* * *

(١) العنى : عقد الجمان ، ص ٢١٥ .
 (٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، أبو المحاسن :
 النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢ — ١٣ ، ٢٥ ، أبو الفدا : المختصر ، ص
 ١٣٢ ، العنى : عقد الجمان ، ص ٢١٥ .

أدرك لويس التاسع ألا أمل له بعدئذ في ترقب فرصة كذلك الفرصة التي سنحت له وضاعت من يده بفضل تدخل الخليفة المستعصم ، وأدرك أيضا أنه لا ينبغي عليه أن يقف مكتوف اليدين ، لا سيما وقد طال مكثه في فلسطين دون أن يقوم بأية حركة إيجابية أو بناحية من نواحي النشاط الحربي المفروض فيه ، خصوصا بعد أن رفض العودة إلى فرنسا وأصرّ على البقاء في الشرق حتى يسترد الأراضي المقدسة ، ولذلك بدأ بتقوية بعض المدن الساحلية والقلاع الداخلية ، حذراً من غارة إسلامية مفاجئة ، فكان مما حصنه قلعة يافا وعكا .

وحدث أن أغارت القوات الناصرية — بعد صلحها مع المصريين — على يافا في يونيو ١٢٥٣ م في أثناء عودتها إلى قواعدها ، لكنها عجزت عن التغلب عليها ، فخادرتها ، وعرجت على عكا التي أحسن الدفاع عنها « جان إبلين » كونت أرسوف ، ومع ذلك فقد استطاع الدماشقة أن يستولوا على مبالغ كبيرة ، افندى بها كثير من المسيحيين أنفسهم من يد المغيرين ، على أن الرماة الصليبيين استطاعوا ردّهم ، فضمت القوات الإسلامية نحو « صيدا » ، وهاجمت قلعتها المعروفة بقلعة « البحر » ، وأسرفت في تقتيل من وقع في يدها ^(١) ، مما انزعج له خاطر لويس .

بادر لويس إلى مغادرة عكا ، قاصدا صدقات الناصر يوسف ،

(1) Joinville : Op. Cit., p. 278, 322.

فهاجم « بانياس » وقلعة « الصببية » التي هرب إليها أهل البلد المسلمون ، وكان البارزون في القتال في ذلك اليوم جماعة الداوية ، وانهى الأمر أخيراً بالتفكير في الدخول مع الناصر يوسف في مفاوضات وذلك دون علم لويس الذي انزعج لهذا الأمر ، وقام بهذه الحركة كبير الداوية « رينو دى فيشييه » . واتخذ غضب لويس على الداوية صورة عملية ، حيث استقدم إليه رئيس الداوية وفرسانها ومندوب الناصر ، ثم قال لرينو : « أيها السيد : أخبر رسول السلطان أنك نادم على مفاوضة السلطان دون أن تحدثني بالأمر أولاً ، وعليك أن تنقض كل ما أبرمته معه » . فاستجاب كبير الداوية وانصاع لما أمره به الملك ^(١) .

وإذا كان لنا أن نستمد حقيقة مما ذكره جوفانفيل فهمي اتساع سلطة الملك لويس على جميع النصارى في بلاد فلسطين واعتبارهم إياه ملوكاً عليهم .

على أن لويس ما لبث بعد احتكاكه الحربي هذا أن غادر الشام إلى فرنسا ، ليعاود صراعاً جديداً في بلاد المغرب ، وقد بارح الشرق وهو مدرك تمام الإدراك أن هزيمة المصريين له في المنصورة قد قضت على آماله .

وهكذا استطاع الجيش المصري — منذ سبعة قرون تماماً — أن يحفظ مصر ، وأن يحفظ فلسطين ، بل وأن يحفظ بقية العالم العربي من خطر الغز الأوروبي .

المؤلف

تأليف :

- (١) الحرب الصليبية الأولى (صدر في سبتمبر ١٩٤٧)
- (٢) نور الدين والصليبيون (د د سبتمبر ١٩٤٨)
- (٣) الشرق العربي (د د فبراير ١٩٤٩)
- (٤) تاريخ المسيحية في الشرق حتى القرن الخامس الميلادي .
- (٥) العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والمسيحيين في الشرق الأدنى (في القرن الثاني عشر الميلادي)
- (٦) A Transition Period in Byzantine Antioch.

ترجم :

- (١) تاريخ الأندلس للمستشرق الهولندي رينهرت دوزي (في أربعة مجلدات)
- (٢) تاريخ العرب الأدبي للدكتور رينولد نيكلسون .
- (٣) مذكرات چوانثقل .



مطبعة الاعتماد بمصر

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072535527